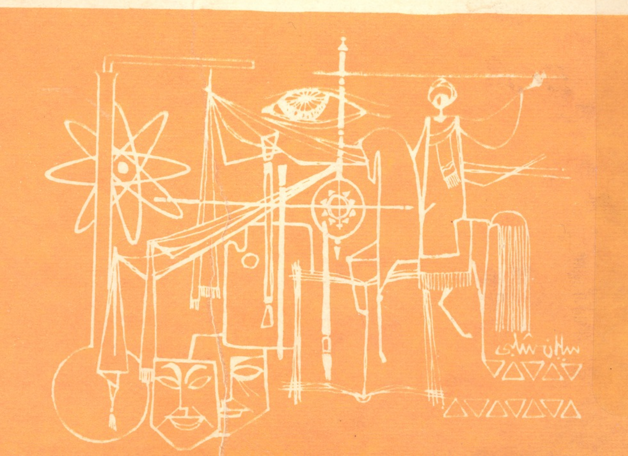
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المكتبة
الثقافية
العدد ٢٤١

مشكلة اليهودية العالمية

دراسة تحليلية لآراء المؤرخ العالمى آرنولد توينبى

تأليف
فؤاد محمد شبل



اهداءات ٢٠٠١

أ.د. محمد دياب
جراح بالمستشفى الملكي المصري

المكتبة الثقافية
٢٤١

مشكلة اليهودية العالمية

دراسة تحليلية لآراء المؤرخ العالمي آرنولد توينبي

تأليف
فؤاد محمد شبل

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧٠

الاهداء

الى ولدى الشهيد سعيد

فى أكرم جوار

تقديم

ثمة واقعتان تجابهان الباحث فى الشئون اليهودية عامة والمسألة الصهيونية بصفة خاصة :

الاولى ـ سرد اليهود تاريخهم من وجهة نظرهم البحتة وحدها • ولقد سلم العالم المسيحى ـ بالذات ـ بصدق هذا السرد كما ورد بالعهد القديم (التوراة) • بل ويعتبره رجال الدين المسيحى كلمة الله ، من ينكرها كافر يبوء بغضبه تعالى وسخطه • أما الاسلام فيدفع التوراة بالتحريف والتزييف ، فليس لها فى النفوس الاسلامية أى تأثير • وتفرعت عن هذه الحقيقه لعنة ما برحت تلاحق أعداء اليهود التاريخيين من : فلسطينيين وفينيقيين وبابليين وموآبيين وسوريين ••• ويأتى المصريون وملكهم فى مقدمة هذه القائمة • ولو كانت هذه الشعوب قد أوتيت لجاج اليهود وتبجحهم ، لتغيرت المفاهيم الى ادعاءاتهم •

على أن المؤرخين المعاصرين يتجهون الى بحث التاريخ اليهودى على ضوء التمحيص العلمى المدعم بما تسفر عنه الكشوف الأثرية من وقائع بينات •

الثانية ـ سيطرة فكرة شعب الله المختار على أذهان

اليهود طوال السنين والأحقاب فما بقية العالم في عرفهم الا أنواع منحطة من البشر تجهل شريعه الرب ، ويطلقون على أفرادها لقب « الأمميين » ازدراء واحتقارا . واليهود قد ترددوا فى عبادة ذاتهم الفـــانية . فانهم قد اعتنقوا فكرة وحداتية الرب وقتما أعرضت عنها شعوب كثيرة وفى طليعتها مصر التى كان حاكمها الملهم « أخناتون » أول من نادى بها . ويقرر العلامة اليهودى « سيجموند فرويد » فى كتابه الطريف « موسى والوحدانية » ان أخناتون هو الذى لقن عقيدة التوحيد .

لكن اليهود بعد أن اعتنقوا عقيدة التوحيد الخالدة ، تركوا لأنفسهم العنان لتستهويهم حقيقة ناقصة : نسبية وموقوته . ومدار تلك الحقيقة الناقصة اعتبارهم السمو الروحى الذى بلغوه وقتا ما — امتيازا خلعه الرب عليهم بموجب عهد أبدى يجعل منهم شعب الله المختار . فكان أن أضلتهم الحقيقة الناقصـــة فأردتهم فى خطأ مميت وانحرف بهم احتضانهم صفة شعب الله المختار الى العقم الفكرى .

وتبحث هذه الدراسة الموجزة المشكلة اليهودية على هدى آراء المؤرخ العالمى أرنولد توينبى ، راجيا أن تؤدى رسالة المكتبة الثقافية .

والله تعالى أسأله العون والتوفيق

فؤاد محمد شبل

الفصل الأول

طابع التاريخ اليهودى

١ ـ نسبية التاريخ اليهودى

يعتبر اليهود غيرهم من شـــعوب العالم أقل منهم منزلة ، فانهم هم الشعب المختار أما شـعوب العالم فهى فى مركز منحط يطلقون على أفرادها كلمة « الأمميين » : هم بتعبير الشـــاعر البريطانى « كبلينج Kippling سلالات دنيا لا شريعة لها ٠

وتقبلت الكنيسة المسيحية دون أدنى مناقشة تفسير اليهود لتاريخهم كما ورد فى التوراة ، بمـــا تضمه بين طياتها من المطاعن ضد الشعوب التى احتكوا بها كالفينيقيين والفلســـطينيين والأدوميـين والمـوآبين والعمـــوريين والدمشـــقيين ٠ وانفرد اليهود فى هـذا الميدان بأقدامهم على رفع سجل تاريخهم الى منزلة التقديس ونجاحهم نجاحا لا يبارى فى ايهام مئات الملايين من البشر على مدى الأحقاب والعصور بأن تاريخهم كتاب مقدس : مصير من لا يصدقه أو يناقشــه علمية عقاب الله فى الدنيـا والآخرة ٠ ومن الناحية الأخرى لا يوجد لأعداء اليهود القدامى من ينهض للدفاع عن قضيتهم ، الا أصوات العلماء والباحثين الخافتة ٠

والحق ، تعتبر المذاهب المســيحية على اختلافهـا التاريخ اليهودى تاريخا مقدســا ، حتى ظهور الســيد

المسيح • ومهما يكن نصيب الفرد المسيحى من الاستنارة الفكرية ومقدار تحرره الذهنى ، فيصعب عليه بمكان أن يتخلص من التراث اليهودى فى المسيحية لأنه كامن فى شعوره الباطنى ويوجه مسار تفكيره بالتالى • فاذا كانت الكشوف الأثرية تهدم ادعاءات اليهود وتلقى أضواء صادقة على المجتمعات الأخرى ، فما برحت جمهرة المسيحيين تأخذ التاريخ اليهودى كما ورد فى التوراة قضية مسلما بها ، وان تأثرت كثيرا بعداء اليهودية للسيد المسيح وبفكره أن الله قد وسع عهده فأصبح يشمل البشرية بأسرها عوضا عن شعب بالذات ، وأن رسالة اليهودية قد استنفدت بظهوره عليه السلام •

لكن تشبث اليهود بفكرة أنهم الشعب المختار ، فاقتضاهم عجزهم عن الاستجابة لتحدى ظهور المسيحية ثم الاسلام الى التقوقع روحانيا وفكريا • فلا شبهة فى أن المسيحية والاسلام يعتبران أهم حدثين فى التاريخ ، ولولا ظهورهما لعاشت اليهودية فى ظل وثنية هلينية مثلما تعيش اليوم بقية البارسيين من أتباع زرادشت فى الهند بين ظهرانى وثنية هندية • وعلى الرغم من عداء اليهودية للمسيحية والاسلام ، فقد أضفى ظهورهما عليها أهمية واعتبارا ما كانت لتحظى به لولاهما ، بل لقيض للجماعة اليهودية أن تعيش فى ظل حجب الغموض والابهام لا يبالى أحد بها • وبفضل ما أخذته الديانتان عن اليهودية من بعض المبادىء ما برحت اليهودية منتشرة فى العالم ولكن

كفكرة ثقافية ، مثلها فى ذلك مثل الهلينية التى لا تزال تعيش ثقافيا بفضل تسلل طائفة من آراء الفلسفة اليونانية الى اللاهوت المسيحى أساسا ، والى الفلسفة الاسلامية ٠

وفيما عدا ذلك ، تعتبر اليهودية بقية حضارة بائدة هى حضارة المجتمع السريانى (مجتمع الشرق الأوسط القديم) تخلفت عنه شذرات ثلاث : ـ اليهودية ، السامرية ، البارسية ٠ ويعتبرها الباحث المدقق مجرد جماعات متحجرة تعزى نفسها على تحجرها الفكرى وتقوقعها الروحانى ببث الايمان فى نفوسها بأنها شعوب مختارة تسمو على بقية شعوب العالم ٠

وانه وان أسهم اليهود ثقافيا فى الجماعات التى أقاموا بين ظهرانيها ، فباعتبارهم أفرادا فى تلك الجماعات استجابوا لتحديات مجتمعهم واستوعبوا ثقافته فأمكنهم أن يساهموا فى نهضته أسوة بغيرهم من أبناء الملل والنحل الأخرى ٠

والى الصدمات العنيفة التى أصابت النفسية اليهودية، يرجع تحول العقيدة اليهودية القديمة ، الى ما أصبحت عليه بعد ذلك من تحجر وكراهية العالم لليهود بالتالى ٠ وفى طليعة تلك الصدمات ما كابدته اليهودية على أيدى

ـ بنوخذ نصر فى ابان العقد الثانى من القرن السادس قبل الميلاد ٠

٢ ـ أنطيوخس الرابع خـلال العقد الثانى من القرن السادس قبل الميلاد ·

٣ ـ الرومان أثناء الحروب اليهودية الرومانية التى جرت خلال أعوام ٦٦/٧٠ و ١٣٢/٥ وكان للصراع الذى نشب بين الرومانيين واليهـــود فى ابان القرنين الأولين الميلاديين تأثير على تاريخ اليهودية أقوى من تأثير ظهور المسـيحية · فلقد دفع اليهـود للعمل الجدى للحفاظ على ذاتيتهم · فكان أن أتم أحبـارهم صياغة شريعة التـوراة المكتوبة وتفنين التعليق على التوراة (أى الميشنا) وانتاج تعليق آخـر يعرف ب « الجمارة » ومن الميشنا والجمارة يتألف التلمود ·

ولا نجد فى الميشنا والجمارة ذكرا لاسم السيد المسيح أو للانجيل · لكن نعثر على كلمات فى التلمود تذكر السيد المسـيح فتفترى بأنه ثمرة زواج بين والدته مريم حلاقة السيدات ورجل يدعى بايوس بن يهودا · لكنها عشـقت رجلا يدعى بانديرا وذأب عيسى ـ كما تقول ـ على السخرية من حكماء اليهود ويدعى التلمود أنه نادى بربوبيته وأنه سيصعد للسماء ثم ادعى التلمود أنه حوكم فى اللد وأعدمه اليهود رجما بالحجارة ولم يشـــترك الرومان فى تنفيذ الاعدام ولا يذكر التلمود حرفا واحدا عن لقب المســـيح مكتفيا باسم عيسى · ويطلق التلمود لفظ « مينيم » على اليهود المتنصرين ، ويبدى خشنيته من اسـتفحال شأنهم مما يهدد كيان اليهود واعتبر المسيحية نحلة يهودية مارقة ·

واتخذت اليهودية شكلها المحدد خلال مائة وخمسين سنة تقع بين جيل الحاخام « يونان بن زكاى » واقامة السنهدريم (المجلس اليهودى القديم) عام ٧٠ ميلادية . وأقر هذا المجلس شريعة التوراة المكتوبة . ويبدو للباحث أن أحبار اليهود قد عمدوا الى تسجيل تراثهم الروحى والأدبى بعد ما شاهدوا تداعيه بفعل التأثيرات الأجنبية .

ولا مجال هنا للافاضة فى عمق تلك التأثيرات وحسبنا القول بأن العقيدة اليهودية قد استوعبت الكثير من أساطير مصر وبابل وحكمتهما ومن ثقافات الشعوب المحيطة بها لا سيما الكنعانيون والفينيقيون ، وأخص بالذكر تأثر اليهودية العميق بعقيدة زرادشت : تأثرا يتجلى بالذات فى المشابهة القوية بين تعاليم زرادشت وسفر أشعيا الثانى .

٢ ـ بداية فكرة الوطن القومى

منذ أن تولى نبوخذ نصر البابلى استصفاء مملكة « يهودا » ابان العقد الثانى من القرن السادس قبل الميلاد ، وهدف اليهود المرحلين الى بابل وسلالتهم يتمثل فى الحفاظ على الذاتية اليهودية القومية . فكان أن اعتنقوا فكرة أن يظلوا يهودا فى جميع الظروف والأحوال وأن يقاوموا مغريات الحضارات التى يعيشون بين ظهرانيها خشية أن ينجرفوا فى تيار الاندماج فى مجتمعها فتضيع مقوماتهم

الذاتية ، وأن يصمدوا للمحن التى تواجههم بسبب اصرارهم على الاحتفــاظ بذاتيتهم المميزة • وذلك الى أن تســــنح لليهودى فرصـــة العــودة الى مملكة « يهودا » ويقيم هناك دولة لا تقتصر فحسب على المنطقة التى كانت تشغلها هذه المملكة فى سالف الأيام ، بل تضم كذلك جميع الأراضى التى كونت دولة داود وسليمان • وعندئذ ــ كما يقول اليهود ــ يكونون قد نجحوا فى الحفاظ على ذاتيتهم القومية • اذ يستلزم الحفاظ على الذاتية القومية توطن رقعة محددة من الأرض وهــذه نتيجة انبعثت من اختراع الزراعة بما تعنيه من اقامة الناس فى أرض يفلحونها ويســـتقرون فيها •

والاستقرار فى أرض محددة ، لا يعتبر من الناحية العلمية شرطا أساسيا للحفاظ على الذاتية القومية • فان شعوبا تشتغل بالتجارة والصناعة ولا تستحوذ على مناطق محددة من سطح الأرض قد استطاعت الحفاظ على ذاتيتها القومية بفضــل ترابطهـــا الثقافى والايديولوجى ، بل وحافظت عليها وهى بعيدة عن مواطنها الأصيلة • ويعتبر اليهود أنفسهم مثالا بارزا ، اذ أمكنهم الحفاظ على مقوماتهم الذاتية منذ تشتتهم وعلى الرغم مما تعرضوا له من محن جرها عليهم سوء مقاصدهم ، وعلى الرغم من زوال دولتهم بفلسطين •

وتجلت أولى محاولات اليهود للاستقرار فى فلسطين ،

بعد خمسين عاما من تدمير نبوخذ نصر مملكة « يهـودا » وترحيل اليهود الى بابل ، فان قورش مؤسس الامبراطورية الفارسية قد أذن لهم بالعودة الى فلسطين • اما أخراها فقد تمت فى أيامنا هذه •

وجدير بالذكر أن الغالبيةالعظمى من اليهود المشتتين كانوا يصدفون في جميع الأحوال عن الاستقرار فى دولة يهودية تقام بفلسطين ، ويؤثرون الاقامة بمواطن تشتتهم التى استقروا فيهـا اذ لم يسـتجب منهم لنداء زعيمهم زور بابل خلال الفترة ٥٣٩ ـ ٥٣٨ قبل الميلاد بالعـودة للاقامة بأرض مملكة يهودا سوى عدد قليل • كما استجاب عدد أقل لنداء العودة عام ٤٥٨ قبل الميلاد بقيادة عزرا ، وعام ٣٨٤ قبل الميـلاد بقيادة نحميا • ذلك لأن اليهود لم يقتصروا خلال الخمسين سنة التى أمضوها فى الأسرالبابلى على ايجاد نوع من الحياة وابتكار مجموعة طريفة من النظم لحياتهم فى التشتت ، بل لقد امتزجوا بنمط حياتهم هذا وواءموا بين أنفسـهم والبيئة التى اسـتقروا فيها بحيث نجحوا فى الحفاظ على ذاتيتهم القومية ، الأمر الذى صدهم عن العودة الى موطن مملكتهم القديمـة • بل ان اليهـود الذين غادروا بابل واسـتقروا بفلسـطين اجتذبتهم مدن العالم الهلينى المزدهرة ، فساروا فى ركاب الفاتحين الفرس مخلفين وراءهم مملكتهم مستقرين فى الممالك الهلينية التى انقسـمت اليها الامبراطورية الفارسية بعد سـقوطها •

وكونوا بها جاليات ضخمة كانت جالية الاسكندرية المصرية أهمها تتلوها جالية روما • ولم يكن مبعث هجرة اليهود من موطنهم بفلسطين الى مدن العالم الهليني التشتت الاجبارى (أى ال Diaspora) بل الهجرة الاختيارية بدافع المغريات الاقتصادية •

وها هنا يطفو الى ذهن الباحث وضع يهود الولايات المتحدة ويهود العالم الغربى عامة لمشابهة التشتت اليهودى فيها بتشتتهم فى بابل منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى القرن الثالث عشر المسيحى • اذ يتصرف يهود أمريكا تجاه دولة اسرائيل مثلما تصرف أجدادهم يهود بابل من قبل • فاليهود الامريكيون يتفجرون غيرة وحماسة لتدعيم الدولة اليهودية فى فلسطين بالتبرع لها بالأموال وبالضغط على السادة الأمريكيين ـ ماديا ومعنويا ـ لمساندة اسرائيل ضد العرب • فى حين لا يتحمس يهود أمريكا اطلاقا لمغادرة أوطانهم والاستقرار فى أرض الميعاد • بل ان الاحصاءات لتنبىء أن يهود اسرائيل يغادرونها اذا ما أتيحت لهم فرصة التوطن بالبلاد الأمريكية أو استراليا •

وتسفر الدراسة التاريخية عن حقيقة لا تمارى مبناها أن أية جماعة يهودية أعيد توطينها منذ فترة ٥٣٩/٥٣٨ قبل الميلاد (أى بعد فك قورش الفارسى اسار يهود بابل) حتى وقتنا الحاضر قد عجزت عن أن تعيش بمواردها

الخاصة ، ولم يقيض لها البقاء الا فى ظل حماية يهود البلاد الأخرى (أى يهود التشتت وفقا للاصطلاح اليهودى) وبفضل رعايتهم وحدبهم عليها ٠

ويقينا ، ما برحت الجماعة اليهودية العالمية منذ الأسر البابلى حتى اليوم ، حصن اليهود وترسانتهم ، وبدونها لن يقيض للجماعة اليهودية بفلسطين البقاء قط ٠ وينبئنا التاريخ أن الجماعة اليهودية خارج فلسطين (أى التشتت) قد عاشت وازدهرت على الرغم من تدمير الجماعة اليهودية فى فلسطين خلال سنوات ٧٠ ميلادية و ١٣٥ ميلادية و ٥٨٦ قبل الميلاد ٠ والعكس غير صحيح ، بمعنى أن الجماعة اليهودية بفلسطين لا يتأتى لها أن تعيش من غير مساندة اليهودية العالمية ٠ فبفضل ما بذلته الجماعات اليهودية من المساعدات المالية وما أسدته من دعم دبلوماسى ، توفر لمملكة المكابيين الاستقلال خلال ثمانين عاما (١٤٢/١ قبل الميلاد ـ ٦٣ قبل الميلاد) وتيسر لمملكة هيرود الكبير أن تعيش ـ تحت رعاية روما ـ سبعة وثلاثين عاما ٠

وما انفكت الجماعة اليهودية بفلسطين تعيش عالة على يهود البلاد الأخرى ثقافيا وروحانيا : فان عزرا اليهودى البابلى هو الذى جعل من التوراة السلطة الحاكمة فى الحياة اليهودية ٠ ولم ينجب يهود فلسطين عالما أو باحثا يهوديا ذا شأن ، عكس يهود الجماعات الأخرى الذين

انجبوا رجالا مبدعين بفضل تأثيرات البيئة التى عاشوا فى كنفها ولفحتهم اشعاعاتها الحضارية • وليس وجود جماعة يهودية بفلسطين هو الذى صان الذاتية اليهودية ، بل حافظت عليها الجماعات اليهودية المنتشرة فى أنحاء العالم •

فمن ثمة يستبين للباحث أن مشيئة البقاء كجماعة حيثما كانت ومهما كانت الظروف ، ما برحت منذ عام ٥٨٦ قبل الميلاد تعلو لدى اليهود على ارادة العيش كجماعة بفلسطين فى ظل دولة يهودية : سواء تألفت تلك الدولة بفضل انبعاث مسيح منتظر يجعل منهم سادة العالم وبقيته عبيدا ، أو أن يقيمها نفوذ يهود التشتت بالتحالف مع الامبريالية والرجعية •

٣ ـ جذور الأطماع اليهودية

ما كان فى وسع اليهود بعد ما ابتلعتهم الامبراطوريتان البابلية والفارسية وتفرقوا هباء بين شعوب الأرض ، أن يأملوا ـ باستخدام القوة ـ فى استعادة الحالة التى كانوا عليها قبل تشتتهم ، أى وقتما كانت مملكة « يهودا » تحيا حياة اقليمية مستقلة • واذا كانت الحياة تبدو سقيمة دون أمل يبث فى الانسان الفاشل القدرة على انتشال نفسه من حاضر لا يرتضيه ، فقد تطلع اليهود فى منفاهم ببابل الى اقامة مملكة داود ، ولكن فى الصورة التى تقع تحت

أبصارهم والتى باتوا يألفونها وهم فى منفاهم : صورة لا نظير لها فى الماضى الواقعى لمملكتهم • اذ تجسدت تلك الصورة فى امبراطورية عالمية واسعة الأرجاء يسيطر فيها عنصر واحد من سكانها ، وهو فيها السيد الآمر المطاع وبقية عناصرها عبيد أو أشباه عبيد • وبالأحرى ، تطلع اليهود لاقامة مملكة من ذلك النوع الذى عرف فى عالم الامبراطوريات الكبرى ، وهفت نفوسهم الى أن تصبح أورشليم عاصمة العالم ويكونوا هم فيها العنصر المسيطر •

ولقد عقد اليهود الآمال بعد تدمير نبوخذ نصر مملكتهم ــ المرة بعد الأخرى ــ على اقامة دولة يهودية جديدة • وذلك كلما أتاح لهم تطور مجريات السياسة الدولية ومهما تضاءلت أمامهم فرص النجاح • ومصداقا لهذا الرأى ، شاهدت دورة الفوضى القصيرة الأمد التى مرت بالامبراطورية الفارسية ــ وتقع بين وفاة قمبيز وتولى دارا الحكم ــ محاولة زور بابل اليهودى الفاشلة حوالى ٥٢٢ ق • م اعادة تشييد مملكة داود • كذلك ، خدع اليهود بانتصار المكابين خلال الفترة الواقعة بين انحلال الدولة السلوقية ووصول الفيالق الرومانية سوريا • فكان أن طمس سراب هذا النجاح الفانى عقول اليهود فانساقوا وراءه بحيث أنهم ارتضوا لأنفسهم ــ مصداقا لما ورد بالاصحاح الثانى من سفر أشعيا قبل ذلك بأربعمائة سنة ــ أن يطرحوا جانبا تقليدا قديما أنزلوه فى نفوسهم مكانا قدسيا : تقليدا يحتم على مؤسس الدولة الجديدة أن يكون

من ذرية داود . على أن تجربة اليهود الفاشلة لاقامة دولة مصطنعة في فلسطين خلال الفترة ٦٦ ـ ٧٥ ميلادية لم تحل بينهم وبين غواية الكارثة بهم وتردبهم فيها مرة أخرى أثناء فترة ١١٥ ـ ١٧ ميلادية ثم انزلاقهم فيها بعد ذلك خلال فترة ١٣٢ ـ ٥ ميلاديه .

وظل اليهود ستمائة سنه يسعون لاقامة دولة بفلسطين باستخدام القوة المجردة فكان الاخفاق حليفهم وأورثتهم المحاولة العقيمة الدمار والتشتت فاستبانت لهم استحالة تنفيذ حلمهم السقيم فى اقامة امبراطورية باستخدام طاقاتهم البشرية . وههنا تطورت شخصية المؤسس المنتظر للمجتمع اليهودى العتيد فأصبح لقبه « المسيح » عوضا عن ملك . وليس الملك مسيحا بشريا لكنه الاله نفسه يتنازل عن مكانه السامى ليتولى دور « المخلص » لشعبه المختار بعد أن وضحت استحالة تحقيق الخلاص بجهود هذا الشعب وحدها . ومناط الخلاص اخضاع العالم بأسره لسيطرة اليهود .

وهكذا سعى اليهود لالقاء عبء تنفيذ مشروع مستحيل من على كواهلهم الذاتية على كاهل الهى تصورى يقوم هو شخصيا بتنفيذ المشروع لصالح اليهود على حساب بقية شعوب العالم وأجناسه .

ويدفعنا هذا للبحث فى تطور طبيعة الاله عند اليهود لاتصالها الشديد بصياغة الفكر اليهودى ـ وبالأحرى اتجاهاته ـ على الصورة التى نشاهدها فى الوقت الحاضر .

الفصل الثانى

طبيعة الإله عند اليهود وتأثيرها الفكرى

يتبين للباحث من استقراء المصنفات التى ورثها اليهود عن مملكتى اسرائيل ويهودا والشروح التى أضيفت اليها ، مدى التغيير الجسيم الذى طرأ على طبيعة «ياهوى» أو فكرة الاله عند اليهود • ولقد اقتضى تصنيف الأدبيات الدينية اليهودية حوالى ١٤٠٠ سنة تمتد من القرن العاشر قبل الميلاد وقتما شرع أحبار اليهود فى تصنيف أسفار التوراة ، حتى استكمال التلمود البابلى فى ابان النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى أما التلمود الفلسطينى فاستكمل فى الجليل خلال الربع الاخير من القرن الرابع الميلادى •

وليس من المستغرب تطور فكرة الاله على مدار هذه الفترة الطويلة من التاريخ اليهودى ، واجهوا خلالها أحداثا ضخمة وكابدوا تغييرات بعيدة المدى : سياسية واجتماعية وثقافية ومروا بتجارب خطيرة أثرت فى تكوينهم العقلى أيما تأثير . بيد أنه مهما يكن من أمر جسامة تلك التغييرات سيطرت على العقلية اليهودية منذ انبعاثها فكرة عن طبيعة الههم لم تتبدل حتى الآن ولهذه الفكرة بعدان أساسيان :

البعد الأول ــ يصور الههم فى صورة انسان • ويتطلب هذا الكائن الانسانى الالهى من أتباعه طاعة عمياء وولاء صادقا كاملا • ولا تختلف وجهة النظر هذه بشأن طبيعة اله اليهود ذات المنحى الانسانى بين مثقف وجاهل، قديما وحديثا • ويعثر عليها الباحث بين القبائل

الاسرائيلية البربرية فى سالف الأيام ، ولا يسلم من الايمان بها فلاسفة اليهود المحدثين ٠

ولم يحدث قط أن تصور اليهود ربهم فى صورة تتنزه عن التجسيد الانسانى ، حتى وقتما قرنوه بالحقيقة الروحية المطلقة ٠ فرغما عن تطور فكرة الاله لديهم من رب حرب للقبيلة الاسرائيلية ، الى الاله الواحد الحق للبشرية جميعها وللكون بأسره ، ظلت فكرة اليهودية القديمة عن الشخص الالهى المتغطرس الحقود قائمة فى أذهان اليهود وعقلهم الباطنى ٠

وبالاحرى ، ليست الوحدانية اليهودية ميتافيزيقية الطابع (أى غيبية المنحى) ، لكنها معنوية أى انسانية المبنى والجوهر ٠

البعد الثانى ـ ثمة عنصر هام من الدوام يعثر عليه الباحث فى ثنايا تطور اله اليهود « ياهوى » ولا يبرح هذا المعنى قائما بين تضاعيف التغييرات الرئيسية التى طرأت على طبيعة ياهوى ٠

لكن يختلف التغير اختلافا بينا باختلاف العصور : ـ

فأولا ـ اتخذت التغييرات الحاسمة سبيلها فى غضون فترة لا تجاوز القرنين تمتد من جيل النبى عاموس فى القرن الثامن قبل الميلاد حتى جيل أشعيا الثانى فى مطلع غزو قورش للامبراطورية البابلية الجديدة ٠ ويعتبر هذا العصر قطب رحى التاريخ الذى تبلور فيه معنى

ياهوى ويصدق على هذا العصر المعنى القائل بان المعرفة حصيلة المكابدة • فهذه الفترة قد اتصفت بالتحول المبدع للنظرة الروحية لحياة كل من اسرائيل ويهودا الروحية ، الا أنها قد حفلت كذلك بالتجارب المريرة التى مر بها شعبا المملكتين اليهوديتين وبالثورة الاجتماعية والاقتصادية التى اتسم بها القرن الثامن قبل الميلاد • وفى خلال تلك الفترة فقدت المملكتان استقلالهما السياسى وتحطم كيان اسرائيل عام ٧٢٢ ق • م ويهودا عام ٥٨٦ ق • م وانتهى مصير اليهود الى ترحيل عناصرهم الرئيسية فبدأت حينئذاك مرحلة النفى اليهودى •

وعلى عكس أسفار أنبياء القرن الثامن قبل الميلاد تصور أسفار التوراة الأقدم عهدا رب اليهود « ياهوى » فى صورة إله حربى اقليمى من النوع الذى يألفه الباحث فى أرباب القبائل فى الشرق والغرب حيث كان لكل قبيلة اله ينصرها فى معاركها ضد أعدائها فكان « ياهوى » رب حرب ثلاث جماعات عبرانية : اسرائيل ، جوداه ، آدوم •

وطبيعى انه لا ينتمى رب اليهود بأصله للخصب والنماء ، اذ انحدر اليهود من الصحراء العربية • ولعله كان فى الأصل رب احدى قبائل كنعان أو مدين • ومهما يكن من أمر موطنه الأصلى ، يبدأ سجله التاريخى منذ أن اتخذته اسرائيل الها سياسيا لها ، ولكن متى بدأ ذلك ؟

تتكلم التوراة عن عهد أقيم بين ياهوى وبين اسرائيل فى سيناء ، بدأت بمقتضاه رعايته لشعب اسرائيل • ولكن

تذكر التوراة أن العهد قد تم بين ياهوى ويوشع فى شثم (سفر يوشع آية ٢٤) • وبفضل ذلك العهـد أتيح لهم دخول فلسطين •

وظاهر أن تاريخ العهد لا يرجع الى أبعد من القرن الثالث عشر قبل الميلاد • لكن أسفار التوراة التى صنفت قبل القرن الثامن قبل الميلاد تصوره ربا ذا طبيعة همجية إذ يعد اليهود مقابل ولائهم له أن يملكهم أراض لا يملكهـا هو ولا حق لاسرائيل فى الاسـتحواذ عليها : ذلك لأنها ملك سـكانها الأصـليين الكنعانيين • فكان على الغـزاة البدائيين أن يمتشقوا السلاح معتمدين على أن ربهم رجل حرب (آية ١٥ من سفر الخروج) ذو قوة وأيد يعاضد شعبه المختار على الفتك ببقية البشرية ••

بيـد أن صـولة ياهوى ذات حدين : ـ فانه يثيب صحابته على طاعتهم لأوامرة : ونواهيه بالفتك بأعدائهم • لكنه لا يقل تشبثا بعقاب صحابته على تمردهم وعصيانهم• وينبئنا سفر القضاء أن ياهوى قد دأب على تسليم شعبه الى أيدى أعدائه جزاء وفاقا على تمردهم عليه • فان أظهروا الندم وتابوا توبة نصوحا بعث فيهم مخلصا منهم ينشلهم من الوهدة التى أرداهم فيها عصيان الرب •

ولا يقتصر وصف التوراة لهذا الرب البدائى بالتعنت مع شعبه ، اذ تظهره أنه نكد ، متقلب ، مندفع ، أخو نزوة•وتعدد التوراة أحكامه الجائرة التى لا تعد ولا تحصى

كما تبدى التوراة شدة بطشه بالناس كقوة عمياء لا تبقى ولا تذر ·

فلا بدع وأن تنعكس صفات هذا الرب على عبـاده طوال الفترة التى كانوا فيها أقوياء · فلما أصابتهم النكبة تلو النكبة وتلقفتهم النقمة بعد النقمة ، واجهوا تحديات عصرهم باستجابات روحانية وعندما واتتهم فرصة الطغيان ارتدوا الى ماديتهم مصداقا لما نراه اليوم من أتباع ياهوى فى اسرائيل ·

ومهما يكن من الأمر ،فلقد تمثلت أولى مكابدات اليهود فى الثـورة الاجتماعية والاقتصـادية التى أخذت بتلابيب شعبى اسرائيل ويهودا فى ابان القرن الثامن قبل الميلاد · وتفسير ذلك أن الاقتصاد النقدى وسبل الحياة الحضرية قـد تسربت الى الريف ومرتفعات كنعان مثلما بسطت ظلها قبل ذلك على المدن الفينيقية والفلسطينية · فكان أن انجرفت ثروة الريف الى المدن واستأثرت بالثروة قلة من السكان باتت تستمتع بأطايب الحياة وكانت القلة تزداد غنى ورفاهية بفضل عمال المضاربة والربا ويستفحل فقر الكثرة · وترتب عن ذلك انقسام الجماعة اليهودية انقساما معنويا ، فاندفعت الكثرة الفقيرة تتساءل عن حكم الرب « ياهوى » فى هذا الانقسام الاجتماعى · لقد كانت رسالته تتمثل حتى ذلك العهد فى حماية عصبته من عدوان المجتمعات المعادية ، أما كيف يحمى أكثرية شعبه الساحقة

من افتيات أقليته المسيطرة فهذا ما لم يخطر على بال عباده وأصفيائه ٠

ههنا فى القرن الثامن قبل الميلاد انبعث أنبياء اليهود منادين بأن الرب نصير العدالة والحق ، واقتبسوا ذلك كله من صفات « رع » الاله المصرى خاصة ومن قواعد الديانة المصرية عامة ، وهى ديانة تجعل العدالة والحق (أى ما يطلق عليه معات باللغة المصرية القديمة) دعامة المجتمع الفاضل وعماد الحكم الصالح ومبرر طاعة المحكومين لحكامهم ٠

ولقد تنبأ أنبياء اسرائيل وقتذاك بأن على بغاة اسرائيل ويهودا اظهار الندم على ما ارتكبوه فى حق جمهرة الشعب ، والتزام الحق والصدق والا فان ياهوى يقابل اساءتهم للشعب بانزال عقابه الصارم على الناس جميعا : حكاما ومحكومين ٠ ولم تجد تحذيرات هؤلاء الأنبياء آذانا صاغية ٠ فكان أن حاقت النكبات والمصائب بالمملكتين ٠ وطفقت كلماتهم تدوى باستمرار فى آذان اليهود المنفيين فآمنوا بأن مكابداتهم جزاء وفاقا على مخالفتهم أوامر الرب ٠

وظاهر أن طبيعة ياهوى قد تغيرت فى نظر اليهود تحت تأثير الظروف : من طاغية تحكمه الأهواء والنزوات ، الى اله قوى عادل ٠

كذلك شاهد القرن الثامن قبل الميلاد نهاية استقلال

دول العالم السورى ـ بل وجودها ذاته ـ على أيدى الأشوريين بقيادة ملكهم تيجلات بيليسو (حكم ٧٤٧ ـ ٧٢٧ ق ٠ م) ولم تستعد تلك الدول ـ ومنها مملكتا يهودا واسرائيل ـ استقلالها قط ٠ اذ تلا امبراطورية آشور الامبراطورية البابلية الجديدة ثم الدولة الأخيمينية الفارسية ثم البطلمية المصرية ثم السلوقية ثم الرومانية ٠ ولقد تباينت معاملة النظم الحاكمة لليهود شدة ولينا ، الا أنهم ـ فى جميع الأحوال سواء فى فلسطين أو فى غيرها من أجزاء الامبراطورية الشاسعة ـ أقلية تعتبر نفسها فى منفى ٠

فلا بدع وقد أصبحت حالة اليهود على ما وصفنا ، أن تنحدر مكانة الههم السياسية فى نفوسهم الى العدم ٠ فأصبح يؤرقهم التساؤل عن حقيقة منزلة الههم بين آلهة الأمم التى يعيشون بين ظهرانيها ٠ اذ كان انتصار أمة فى معاركها دليلا على قوة شكيمة الهها أو آلهتها القومية ٠ وبالأحرى نظروا الى الحرب بين آشور واسرائيل على أنها حرب بين اله اسرائيل واله آشور ٠ فلما أبادت آشور اسرائيل ترتب على ذلك نتيجة منطقية مؤداها أن اله آشور قد انتزع ياهوى اله اسرائيل عن سلطانه ٠ ويقتضى هذا منطقيا أن ينصرف ولاء عباد الاله المهزوم الى الولاء للاله المنتصر ٠ أو يجعلوا من الههم القومى تابعا خاضعا للاله المنتصر مثلما أنهم هم خاضعون لعباده المنتصرين ، بما يعنيه

ذلك من الاقرار بسيادة آله الأمة المنتصرة وتسامية على اله الأمة المنهزمة . فلا يستغرب والحالة هذه أن يقبل اليهود على عبادة ما ردوك بعل وعشتار الهى بابل القويين رغما عن تذمر أنبيائهم وتوعدهم اياهم بالويل والثبور وعظائم الأمور .

ومن ثم كان على أتباع ياهوى : ــ

أما أن يهجروا عبادة اله أجدادهم بعد أن تداعى سلطانه كاله حرب قبلى .

أو أن يسبغوا عليه صفات تجاوز كثيرا ما أضفاه عليه أسلاف اليهود المنهزمين .

فلقد كان ياهوى قبل النفى مجرد اله خاص بشعبى مملكتى يهودا واسرائيل . ولم ينكر هؤلاء السكان حتى الأنبياء أنفسهم وجود أرباب أخرى لكل منها سلطانه السياسى الخاص ، ولا يقل أبدا وصولة داخل سلطانه ، عن سلطان ياهوى على شعبى يهودا واسرائيل . ولما حاقت المذلة والهوان باليهود أوحى مثقفو الشعبين ــ أى من يعرفون بالأنبياء ــ الى الشعبين بأن هزيمتهم ليست نتيجة انتصار آلهة الأمم التى أنزلتها بهم ،ولكن نتيجة غضب ياهوى عليهم لعصيانهم اياه . فلم يعد ياهوى ربا لليهود وحدهم لكنه ــ وفق رأيهم ــ رب العالم القوى الفرد الصمد .

أقصد بأن هذا الاعتقاد العجيب فى قدرة « ياهوى » قد مد حدود المناطق التى يقيم فيها عابدوه ، فقد فرضه على اليهود الكارثة السـياسـية التى ابتلتهم بها الدول الأجنبية ، وقد أكدتها محنة النفى وعززتها تجربة التشتت والامة • فلقد كان اليهود أثناء اقامتهم فى رحاب المعبد يؤمنون أنهم فى حضرته وأن تأدية الطقوس الدينية لاتصح الا فى معبده ، فكان تشريدهم عن مقامهم بفلسطين نذيرا بضياع ايمانهم بددا لولا صفتا القدرة الكلية والشمول اللتين أضفيتا عليه : اذ أصبح ياهوى كائنا فى كل مكان •

ـوانبنى على ذلك تحول جوهرى فى التفكير اليهودى الدينى ، فبعد ما كان يؤمن بالربوبية التشوابية (ومؤداها الايمان باله واحد ولكن مع عدم انتفاء الايمان بغيره) أصبح أشعيا الثانى بعد خمسين سنة من النفى البابلى يؤمن بأن اله اليهود (أى ياهوى) صاحب الحق المطلق فى ولاء اليهود له ، وأنه هو الاله الواحد الحق لا شريك له فى الكون بأسره •

ولكن اذا كان ياهوى هو حقيقة الذى جر المصائب على رءوس اليهود ، وليس اله من آلهة الامم الأخرى التى زال اعتبارها ــ بل وجودها ذاته ــ من الفكر الدينى اليهودى وفق التخريج المتقدم ، فلقد تساءل أحبار اليهود عما دفع باله عقد مع شعبه المختار عهدا أن يوقع بهـــذا

الشعب النكبات القاصمة وبخاصة وقد آمنوا بأنـه اله عادل ، وهم وان سلموا بأن أقلية منهم قد ارتكبت معصية تستحق عليها العقاب ، لكن قوة هذا العقاب وبشاعته مما لا تتناسب اطلاقا مع معارضى تلك الأقلية ، أولا يشكك هذا فى عدالة الاله ؟

الفصل الثالث

العنصر المصري في اليهودية

١ ـ شخصية موسى

توحى قراءة التوراة الى البعض بأن الذاتية اليهودية تمتد الى أيام آدم أو نوح · لكن جذور اليهودية لا تبعد وفقا للتوراة الى أبعد من ابراهيم · ويوضح الاستقراء العلمى للتوراة أن العهد قد تم بين ياهوى وبين شعب اسرائيل ، وبمقتضاه اصطفى يا هوى اليهود شعبا مختارا له على أن يلتزموا بفروض خاصة فى مقابل أن ينيلهم مبتغاهم فى الاستيلاء على فلسطين ·

وبالأحرى ، تم العهد بعد خروج اليهود من مصر · لكن اليهود يجعلون من ياهوى اله آبائهم : ابراهيم واسحق ويعقوب ، وان تبين من الأسفار الخمسة ان لفظ «ياهوى» لم يعرفه اليهود الا بعد أن تجلى لموسى فى سيناء وأوحى اليه نصوص العقد بينه وبين الاسرائيليين ·

وما اليهود ـ من الناحية العلمية ـ الا فرع من الأقوام السامية التى انحدرت من الجزيرة العربيـــة فى ذلك الحين ودفعت سكانها الساميين للبحث عن مظان للعيش فى وديان الأنهار وفى أحضان الحضارتين العالميتين : البابلية والمصرية·

ولا شبهة فى أن التطـــــور الذى طرأ على العقيدة

اليهودية بعد خروجهم من مصر يدفع بالباحث لاستقراء العنصر المصرى فى اليهودية ٠

وأول ما يطالعنا فى هذا السبيل لفظ « يا هوى » نفسه ٠ ويقرر أحد كبار مؤرخى العقائد الدينية الاستاذ البرايت Albright (١) أن لفظ « ياهوى » قد يكون أول كلمة فى صيغة تعنى « ذلك الذى يحدث ماينبعث للوجود » ٠ وهذه حقيقة وردت بالمتون الدينية التىشاعت فى ابان القرن العشرين قبل الميلاد وفى ترانيم المعبود آمون المصرى بالذات ٠

وفى موضع آخر يقرر هذا المؤرخ أن موسى قد آمن بالوحدانية الكاملة ، الا أنه استقى آراءه بأن ياهوى هو خالق الكون وسيدهالأوحد وأنه الاله الفرد الصمد منأفكار أخناتون التوحيدية التى أثرت فى همج الكنعانيين والمدينيين الذين كانوا ينتشرون فى جنوب شرقى الحدود السورية لأملاك الدولة المصرية الحديثة ٠ واذا كانت عقيدة التوحيد الآتونية لم تعش فى مصر طويلا بعد وفاة ملهمها أخناتون فلا يعنى ذلك زوال تأثيرها من العالم كلية ٠ اذ لايستغرب الباحث أن تعيش خارج مصر وأن تدخل فى نطاق عقائد دينية أخرى ٠ وأصدق دليل يطالعنا أن العقيدة الدرزية التى نادى بها الحاكم بأمر الله فى مصر لا تزال تعيش حتى

---

(١) Albright from the Stoneage to bristianity.

اليوم بعد انقضــاء حكم مؤسسها بـ ٩٥٠ عاما بين أقوام يعتنقونها فى فلسطين ولبنان وسوريا ويخلصون لها ٠

فاليهود يؤمنون بأن العقيدة اليهودية والشــعب اليهودى قد تكاملا منذ أيام موسى ، لكن تتعارض هــذه النظرية مع الحقائق التاريخية المقررة : انها لتتناقض مع الأسفار اليهودية ذاتها ٠ وتبين الدراسة العلمية للأسفار الخمسة أنها مادة مركبة استخلصت من وثائق أقدم منها ، وانها عمل توليفى انتزع من مصنفات أبعد عصرا ٠ ولقد تمت عملية التوليف والمزج حتى ثبتت على صورتها الحالية فى التوراة فى تاريخ يرجع الى القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد ، أى بعد عصر موسى التاريخى بأربعمــائة سنة ٠

وموسى شخصية تاريخية ٠ وما برح اسمه يثير الجدل الشديد بين علماء التاريخ والدين ٠ فظاهر أن اســمه هو المقطع الثاني لاسم مركب مثل « اح موسى » (أى أحمس وفقا للنطق المتعارف عليه نقلا عن النطق اليونانى) ورع موسى » (أى رمسيس) و « تحوت موسى » (أى تحتمس) وطبيعى أن لا يرضى الاسرائيليون أن يحمل بطلهم القومى اسما مصريا صميما بسبب دافع قومى غلاب مؤداه أن هذا البطل حقيقة تاريخية لا بمكن تجاهل وجودها واسمها بأية حال من الأحوال ٠

ومن الناحية الأخرى ، فاذا كان بطل اليهود القومى

يحمل بالفعل اسما مصريا مركبا ، فانهم قد أسقطوا مقطعه الأول الذى يحمل اسم معبود مصرى مثل رع أو تحوت أو آمون أما قصة الفرعون عدو موسى فيفسرها المؤرخ روبينسون بأنها قد انحدرت الى اليهود من قصة مصرية ترمز للصراع الدامى بين أحموس وفرعون الهكسوس الشرير الذى هزمه أحموس واستكمل تحرير مصر بعد استشهاد والده «سقنن رع» ووفاة أخيه الملك «كاموسى» • فكان اليهود وفقا لهذه النظرية قد واءموا بين صراع أحموس بطل مصر القومى ضد الهكسوس ، وصراع موسى بطلهم القومى المصرى الأصل والذى نهض بعبء قيادتهم فى الخروج من مصر •

ويذهب بعض المؤرخين للقول بأن قصة الخروج ترمز لخروج الهكسوس من مصر وتولى ملكها طردهم وقتلهم وتشريدهم بعد أن ذاق المصريون على أيديهم الذل والمهانة •

وتلقى هذه النظرية شيئا من الضوء على الغموض الفائق الذى يرين على خروج اليهود من مصر اذ لا نجد فى المستندات المصرية الحافلة بذكر التفاصيل إشارة ولو عابرة عن هذا الحدث الهام الذى أصبح له تأثير ضخم على التاريخ الدينى وما برح يؤثر فى نفسية اليهود ، وهو الذى أثمر بصفة عامة ذاتيتهم الخاصة •

ولقد ظلت الأسماء المصرية شائعة بين اليهود وقتنا

طويلا وبخاصة فى بيت هارون ، ولا يزال بعضها قائما مثل بنحاس • (١)

ويغفل أنبياء اسرائيل ويهودا خلال القرن الثامن قبل الميلاد ذكر علاقة موسى بالتوراة ويستخدمون كلمة «توراة» تعبيرا عن أحاديثهم • وكان النبى عزرا أول من نادى بأن التوراة أوحيت الى موسى ، وعزرا هو الذى ارتحل من بابل الى يهودا خلال عام ٤٥٨ قبل الميلاد أو ٣٩٧ قبل الميلاد فاذا كانت الاسفار الخمسة ـ كما قررنا ـ قد وضعت فى أبان القرن التاسع أو العاشر قبل الميلاد فان التوراة قد استكملت صورتها الحالية بعد الحرب الرومانية اليهودية (٦٦ ـ ٧٠ بعد الميلاد) •

لقد أظهرت الدراسات العلمية أن سفر الأمثال قد اقتبس من أناشيد فينيقية نقلت هى الأخرى بنصها من أمثال الحكيم المصرى آمنموبى •

٢ ـ آراء العلامة فرويد

ولا يمكن فى دراسة تأثير مصر على العقيدة اليهودية ان نغفل ما قرره العلامة فرويد فى كتابه الظريف « موسى والوحدانية » •

(١) بنحاس من كلمة نحس الفرعونية وتعنى النوبى •

يقرر فرويد أن يا هوى أصله اله محلى متصــل بالأرض وأن لفظ يا هوى قد استخدمه كهنة آمون فى نشيد للتسبيح باسم معبودهم • وفى الاصل أنه ظهـر لبصر الاسرائيليين لأول مرة على صورة كائن « جنى »يسكن مكانا فى شمال الجزيرة العربية ويتجلى فى بركان • واله اليهود غيور انطوائى لكنه يتسامح مع منافسيه من الارباب المحليين من نوعه • ولكن ما ان حل اليهود بمصر واحتكوا بآراء أخناتون حتى برزت فى ديانتهم خاصيتا «كليـة الوجود » و « الوحدانية » اللتان تتصف بهما فكرة الرب فى العقيدة اليهودية الحديثة •

ولقد تولى أخنـــاتون ملك مصر العبقـــرى عرش الامبراطورية المصرية عام ١٣٧٥ قبل الميلاد بعد وفاة والده آمنحت الثالث الذى بلغت مصر فى عهده أزهى عصورها الحضارية وأبهاها • ولقد اتجه اخناتون اتجاها دينيا بحتا ولم تسيره العوامل الذاتية ، فلقد رنا الى أبعد من ذلك كثيرا • اذ هفت نفسه للوحدانية المجــردة عن الأغراض الدنيوية ، وتبلورت عقيدته فى عبادة القوة التى تعتبر الشمس أعظم مظاهرها على الارض واتخذ من اســم آتون علما على تلك القوة ، ورمز اليها بقرص الشمس ينبثق منه شـعاع ينتهى بأيد بشرية تحمل فى بعض الأحيان علامة الحياة المصرية القديمة (أى العنخ) •

وأول ما يلفت نظر العلامة فرويد مثلما لفت نظر غيره

من الباحثين اسم موسى عليه السلام ، فانه مشتق من اللغة المصرية القديمة ، ويعنى طفل ، ويدخل فى كثير من الاسماء المصرية مثل « آمون موسى » ويعنى آمون وهب طفلا و «بتاح موسى» أى بتاح وهب طفلا . ويخلص فرويد من مناقشته اسم موسى وما أحيط به مولده من أساطير وردت فى سفر الخروج للقول بأن موسى محرر اليهود من رق المصريين وبطلهم ومانحهم شريعتهم وناموسهم لم يكن يهوديا بل كان مصريا صميما . لكن عز على اليهود أن يكون بطلهم القومى أجنبيا فأحالته أساطيرهم الى يهودى وان كانت التوراة قد اعترفت بأنه قد اكتسب حكمة المصريين » .

وجدير بالذكر أن كلمة توراة العبرية تعنى «التعليم» وهذا هو بالضبط ما يعنيه لفظ « سبايت » الاسم المصرى لمذهب اخناتون التوحيدى . ويعترف فرويد بأن أحبار اليهود قد أحاطوا موسى بالكثير من الاساطير وحاكوا حوله على مر الأجيال الروايات الخيالية الامر الذى أسبغ الغموض على تلك الشخصية الفذة ، كما تروى التوراة سيرتها .

وقد ألزم موسى ـ بحكم مصريته ـ اليهود باعتناق عادة الختان . وكان المصريون يجرونها دون بقية شعوب العالم بأسرها وعرفوها قبل دخول اليهود مصر بآلاف السنين وهدف موسى من وراء ذلك أن يساوى بين اليهود والمصريين

فى عادة انفرد بها الاخيرون وكانوا يحسون بفضـــل ممارستها انهم أنقى أجناس البشر جميعا ٠

وعلى أية حال ، حالت هذه العادة دون ذوبان اليهود فى المجتمعات الأخرى أثناء ترحالهم وتجوالهم ، مثلما قد حالت بين المصريين والاختلاط على نطاق واسع بالامم التى احتلت بلادهم مثل الفرس واليونان والرومان ٠ وما كان أحبار اليهود ليعترفوا بالاصل المصرى لعادة الختان ففى هذا الاعتراف اضعاف فكرة شعب الله المختار ، فادعوا فى التوراة بأن الختان التزام فرضه الرب على شعبه المختار بموجب عهد أرجعوه الى النبى ابراهيم ٠

وثمة مظهر آخر لفكرة التسامى عن بقية الشعوب والعزوف عن الاختلاط بها اقتبسه اليهود من مصر ألا وهو تحريم تناول لحم الخنزير لاتصال ذلك بأسطورة تقـــول بأن رب الشر ست قد تنكر فى شكل خنزير وهاجم الرب « حور » ٠ ولما كانت الشعوب الاخرى تأكل لحم الخنزير امتنع المصريون نساء ورجالا عن مصافحة الاجانب أو تقبيلهم أو استخدام أدوات مطبخهم خشية أن تكون قد تلوثت بلحم الخنزير ٠ وبفضل هذا انحصر اختلاط المصريين بالأجانب فى حدود ضيقة للغاية فكان أن احتفظت القومية المصرية بأصالتها المديدة على كر السـنين والأحقاب الى يومنا الحاضر ٠

ولكن اليهود بعد خروجهم من مصر بقيادة موسى قـد

ارتدوا عن الوحدانيـــــة ، وذلك لأن اخلاطا من القبائل المستوطنة الأراضى الواقعة بين مصر وكنعان انضمت لليهود بعد خروجهم من مصر · وكانت قبائل شمال الجزيرة العربية تعبد ربا تعتقد انه يسكن بركانا ويتجلى لعابديه بانطلاق حممه ، وتطلق عليه « ياهوى » المصرى الاصل كما قررنا · وبذلك أصبح ما يطلق عليه الشعب اليهودى « ياهوى » يتكون من عنصرين أساسيين : ـ

ـ عنصر مصرى التربية والعقيدة

عنصر بدوى من شمال جزيرة العرب

وكان عدد اليهود المصريين أقل من عدد من انضموا اليهم من أبناء القبائل الاخرى ،لكنهم بحكم توطنهم الطويل بمصر أسمى ثقافة بمالا يقاس · ويرجح فرويد ان يكون اللاويون ـ وكانوا أدنى اليهود المصريين الى قلب موسى ـ مصريين أقحاحا من أتباعه بقايا معتنقى العقيدة الآتونية ، وكان اللاويون يحملون أسماء مصرية بحتة دون غيرهـــم من اليهود الذين خرجوا مع موسى ·

وفى قادس ـ كما يقرر فرويد ـ اجتمع الفريقان : الأقلية المصرية (المصريون الاقحاح أى اللاويون واليهـود المتمصرون) والغالبية من القبائل البدوية التى انضـــمت اليهم · وهناك تقبل الجميع اسم « ياهوى » الاله البركانى معبود منطقة شمال شبه الجزيرة العربية على أن يحل محل

آتون (أو أدوناى) وان يكون ربا عالميا مثل آتون . وكان موسى ـ كما يدعى فرويد ـ قد مات ويرجح قتل اليهود غير المصريين له قبل مؤتمر قادس بأكثر من مائة عام . وسعى المجتمعون لاستئصال كل شيء يربطهم بمصر . فكان أن ربطوا بين موسى وذلك الكاهن الذى أنشأ ديانة ياهوى فاطلقوا عليه اسم موسى السامرى . الا أنهم ـ تحت تأثير اليهود المصريين ـ قد احتفظوا بفريضة الختان وان أنكروا اصلها المصرى وأرجع مؤلفو التوراة ـ كما ذكرنا ـ أصلها الى عهد بين ابراهيم وربه تمييزا لنسله عن بقية أقوام العالم بحسبانه شعب الله المختار .

ويصف فرويد أدعاء اليهود أنهم شعب الله المختار بأنه خرافة مطبقة . ويقرر أن تلك حالة لا نظير لها على الاطلاق فى تاريخ العقائد الدينية . ففى الحالات الاخرى يندمج الشعب ومعبوده اندماجا تاما منذ البداية ، فى حالات أخرى يتحول شعب الى عبادة معبوده : أى يختار الناس معبودهم . ولم يحدث قط ـ كما فى الحالة هذه ـ ان اختار الله عابديه . فالمنطق يفرض علينا أن نقرر أن موسى قد جعل من اليهود شعبه ، أى شعبه ، أى شعبة المختار بعد ما تبين له عزوف المصريين عن الوحدانية .

لكم ما الذى فعله اليهود بموسى ؟

يجيب فرويد عن هذا السؤال بنظرية خطيرةاستقاها هو وغيره من الباحثين الغربيين من دراسة الكتبالمقدسة

اليهودية ومن استقصاء التاريخ الديني . ومدار النظرية ان موسى لاقى مصير اخناتون . فلقد عجز شعب موسى اليهودى عن احتمال فكرة دينية ذات طابع روحانى رفيع مثلما عجز شعب الأسرة الثامنة عشرة المصرى عن احتمالها . وكانت النتيجة واضحة في الحالين : تمرد الناس على العقيدة الدينية التى فرضت عليهم رغم ارادتهم . ولكن بينما صبر الشعب المصرى المتحضر على حكم فرعون لتقديسهم لشخصه الى أن مات ، ثار اليهود المتوحشون ـ وفقا لتعبير فرويد ـ على موسى وقتلوه . ويبنى حكمه هذا على قصة التيه فى سيناء ، اذ ترمز فى نظره الى سلسلة من تمرد اليهود على حكم موسى ، وبلغ التمرد ذروته بعبادتهم العجل الذهبى وبغضب موسى وتحطيمه ألواح الشريعة .

وأتى على اليهود بعد ذلك حين من الدهر ندموا على فعلتهم الوحشية وحاولوا نسيانها . وحدث ذلك ـ كما يقول فرويد ـ عند اجتماع اليهود فى قادس فى تاريخ يقع قبل عام ١٢١٥ قبل الميلاد (أى فى أواخر عصر الفرعون مرنبتاح بن رمسيس الثانى) وقبل استقرار أحوال مصر فى عصر حورمحب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، أى فى تاريخ قريب من عام ١٣٥٠ ق.م.

ذلك لأنه عوضا عن « آتون » ذى الصفات الوديعة والخلق الكريم الذى ينفر من العنف فى شتى صوره وينشد السلام ، حل مكانه اله يصفه فرويد بأنه : عنيف ، غضوب

ضيق الأفق العقلى ، محب لسفك الدماء . وعد اتبـاعه بأن يمنحهم أرضا تفيض لبنا وعسلا باغتصابها من سكانها الأصليين بحد السيف .ولم تكن ديانة « ياهوى» فى بداية أمرها ديانة توحيد كاملة ، فلقد اعترف يا هوى بالآلهـة الأخرى ولكن على أساس أنه أقواهم . وهذه فكرة تجافى فكرة موسى ذات الطابع الروحانى السامى عن الاله . فهو اله واحد يشمل سلطانه الكون بأسره ، قوى رحيم ، يطالب عابديه بأن ينشدوا الحق والصدق وينبذوا السحر والأساطير والكهانة .

ولقد جهد اللاويون ـ أتباع موسى ومواطنـوه من المصريين ـ فى العمل على انتصار رب موسى واحلاله محل ياهوى الاله البركانى الاصل . ففى غضون السنوات الطوال التى تلت مؤتمر قادس ، عملوا على استعادة شريعة موسى وتطويرها والحفاظ على المتون المقدسـة والزام الشعب اليهودى بمراعاة طقوس العبادة المأثورة عن موسى . ولقد تأثرت بتعاليمهم واخلاقهم جمهرة من مثقفى اليهود (من غير اللاويين) ثابروا بدورهم على التبشـير بالمذهب الموسوى : ذلك المذهب الذى يستند على وجود اله واحد أحد فرد صمد يزدرى الطقوس الوثنية بما تفرضه من تضحيات بشرية ، يتطلب الاله الواحد من أتباعه الايمان الصادق به والانغمار فى الحقيقة والعدالة (أى ما يعبـر عنه بكلمة معات المصرية القديمة) وكللت جهود أنبيـاء

بنى اسرائيل بالتوفيق فى نهاية المطاف فاستعاد المعتقد القديم سلطانه وأصبح المحتوى الدائم للديانة اليهودية .

ويقرر فرويد أنه يتبين التأثير المصرى فى الديانة اليهودية من تلك المسحة الشاعرية التى تلون الفكرة الالهية سواء ما اتصل منها بـ « ياهوى » أو منافسه « الوهيم » . ففى هذه المسحة تتجلى طبيعة الديانة الموسوية فما كان «ياهوى» فى الأصل سوى وثن لا يفترق عن الأوثان التى كانت تتعبد لها القبائل والشعوب المجاورة لليهود ، وكان كل منها يتخذ وثنه الأثير رمزا يحارب تحت لوائه أعداءه . ولم تفترق طبيعة ياهوى فى جوهرها عن طبيعة تلك الأوثان الى أن اصطبغ بالصبغة الموسوية المصرية الاصل . وظلت القبائل اليهودية تعترف بآلهة قبائل كنعان وموآب وآماليك وغيرها من القبائل . وليس أدل على صحة نظرية ديانة آتون على التوحيد اليهودى مما أظهرته الكشوف الاثرية من وجود جالية يهودية بجزيرة الفنتين بأسوان كانت تتعبد ـ قبل انبعاث ديانة آتون ـ لوثن يدعى « ياهو » كما تتعبد الى معبود مؤنث أطلقت عليه اسم « آنات ـ ياهو » .

ويعزو فرويد ارتداد اليهود عن الوحدانية وايثارهم اعتناق عقيدة « ياهوى » الى طابع تلك العقيدة العسكرية اذ كان الها بركانيا فظا غضوبا ميالا الى التدمير . وكانوا هم متدمن على غزو فلسطين والفتك بسكانها الأصليين

للحلول محلهم · فكان أن صدفوا عن عبادة آتون لما تتصف به ـ كما يتصف صاحبها اخناتون ـ من وداعة ورقة وايثار السلام والتبشير بالمحبة والوئام بين الشعوب ، لا سيما أن كان ظهوره ـ أى آتون ـ فى عصر اتسم باستقرار أوضاع الامبراطورية المصرية وانتفاء الحاجة للروح العسكرية بالتالى · لكن أخذت نزعة « ياهوى » التدميرية وطابعه العنيف الاصلى يتلاشيان تدريجيا متخذا صفات رب موسى القديم محتفظا بالذات بطابعه كاله الكون بأسره يهيمن على أقطار الأرض كلها وعلى كافة الشعوب · بيد أن انتقال الوحدانية من المصريين الى اليهود قد سلك ـ كما يقرر فرويد ـ سبيلا تجلى فى فكرة جديدة مدارها أن اليهود وقد اصبحوا المؤمنين به دون بقية الشعوب ـ شعبه المختار ـ يتلقون وحدهم بركاته وثوابه ·

وما كان ايمان اليهود بأنهم شعب الله المختار ليتواءم مع ما حفل به تاريخهم من اخفاق ومكابدات · فكان أن ابتعث أحبارهم من أعماق شعور الشعب عقدة الذنب ففسروا ـ بالتالى ـ ما يمر به الشعب اليهودى من أرزاء بأنه تكفير عن ذلك الذنب وأن تلك ارادته تعالى الى أن يحين الوقت الذى يحظون فيه برضائه تعالى كشعب الله المختار وما هم فى الواقع ـ كما يقول فرويد ـ الا شعب موسى المختار · وتطور ايمانهم بعقيدة الشعب المختار للايمان بفكرة ظهور شخصية الهية أطلقوا عليها المسيح تتولى

تحقيق حلمهم المرتجى : كفالة الخلاص للشعب اليهودى ، ويكمن الخلاص فى اخضاع العالم لسـلطانهم . فالخلاص مادى الطابع وينصرف الى اليهود وحدهم دون بقية شعوب العالم. ويناهض هذا مبادىء المسيحية والاسلام بما تبشران به من الخلاص للمؤمنين جميعا ، من جميع العناصر والشعوب .

الفصل الرابع

خصائص اليهودية

١ ـ تطور معاملة اليهود

يتساءل المؤرخ العالمى أرنولد توينبى عن علة الصفات المميزة لليهود فى ظل التفرقة الدينية • ولقد استعان فى بحثه بوسيلتين :

الأولى ـ مقارنة النفسية المميزة التى يظهرها اليهود وقت اخضاعهم لنقمة الاضطهاد الدينى والعنصرى ، بتلك النفسية بعد ما تختفى النقمة أو تزول كلية •

الثانية ـ مقارنة طابع اليهود الذين خضعوا للنقمة أو لا يزالون خاضعين لها بطابع الجماعات اليهودية الأخرى التى لم توجه اليها نقمة الاضطهاد الدينى والعنصرى •

واليهود الذين يظهرون بكل جلاء فى الوقت الحاضر الصفات اليهودية المألوفة جيدا والتى تلقب عادة بـ«اليهودية» والتى تنطبع فى أذهان الامم عامة حتى لتصبح علامة اليهودية فى كل زمان ومكان ـ هم يهود شرق أوربا الذين يعرفون بـ « الأشكنازية » •

وأراضى شرق أوربا كانت داخلة فى الامبراطورية الروسية تحت ما يسمى « الحظيرة اليهودية » • اذ ظل هؤلاء محصورين أدبيا وبحكم التشريع كذلك فى حى خاص

بهم يدعى « الغيتو » بفعل تلك الأمم المسيحية التى كانت من نصيب اليهود أن يعيشوا بين ظهرانيها ٠

وأكيدا ، نجد النفسية اليهودية أقل وضوحا بين يهود هولنداوبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة المتحررين ولعلنا نلاحظ أيضا فى يهود الغرب المتحررين أن الذين هم من أصل اشكنازى ووفدوا اليه من الحظيرة اليهودية ،لاتزال تبدو في نفسيتهم طائفة يهودية أشد مما يبدو فى نفسية طائفة يهودية أخرى تدعى « السيفارديم » وفدت الى أوربا الغربية من البلاد الاسلامية وهم أقل عددا من يهود طائفة الاشكنازى التى عاشت بين ظهرانى مسيحيى أوروبا ٠

ويعلل الأستاذ توينبى الاختلاف بين طائفتي الاشكنازية والسفارديم اليهوديتين من ناحية شدة حدة الروح اليهودية الى الاختـلاف فى تطـور هاتين الجمـاعتين اليهـوديتين التاريخى ٠

اذ ينحدر اليهود الاشكنازيون من اليهود الذين اغتنموا فتح الرومانيين أبواب أوروبا فحققوا أرباحا من ممارسة تجارة التجزئة فى مقاطعـات ما وراء الالب شـبه الهمجية ٠ واستفحلت محنة هؤلاء الاشكنازيين باعتنـاق الامبراطورية الرومانية المسيحية ثم انهيارها . فانهم قد غدوا يعانون الأمرين من تعصب الكنيسة المسيحية ومن ازدراء الوثنيين الجرمان وغيرهـم ٠ اذ لا يحتمل الوثنى مشاهدة مقيم غريب يحيا حياة منعزلة ويحصل على ربح بفضل التبادل التجارى الذى كان الوثنى يفتقر للمهـارة

اللازمة لممارسته بنفسه . فكان أن اندفع المسيحيون الغربيون ـ مسيرين بهذه المشاعر ـ لاضطهاد اليهودى : طالما لا غنى لهم عنه ثم طردوه بمجرد ما أحسوا بقدرتهم على الاستغناء عنه .

وبالأخرى، صاحب قيام المسيحية الغربية وامتدادها دفع الاشكنازيين شرقا من حدود المسيحية الغربية . وفى داخل أراضى المسيحية الغربية ، طفق اليهود يطردون من بلد بعد آخر ، وذلك كلما بلغت الشعوب الغربية المتعاقبة مستوى معينا من الكفاءة الاقتصادية : مثلما طردهم من انجلترا ادوارد الأول (١٢٧٢ ـ ١٣٠٧ م) . فى حين قبل هؤلاء اليهود (المنفيون من داخل القارة) فى أقاليم الحدود المتقدمة ، بل انهم دعوا للاقامة فى بلد بعد الآخر فى أبان المراحل الأولى لتحولها الغربى باعتبارهم روادا تجاريين . وما لبثوا أن تعرضوا للاضطهاد ثم طردوا فى النهاية مرة أخرى بمجرد أن أصبحوا غير ضروريين للحياة الاقتصادية فى ملجئهم الوقتى .

وفى روسيا القيصرية توقفت رحلة اليهود الاشكنازيين من الغرب الى الشرق وبلغ اضطهادهم ذروته وذلك لأنه هاهنا ـ عند التقاء المسيحية الغربية (الكاثوليكية البروتستانتية) بالمسيحية الأرثوذكسية الروسية ـ أمسك باليهود وطحنوا بين شقى الرحى . وعندما نشدوا فى هذه الرحلة معاودة الارتحال شرقا ، سدت روسيا القيصرية

الطريق فى وجوههم • بيد أن أمم الغرب الرئيسية التى كانت البادئة بطرد اليهود فى القرون الوسطى • بلغت فى هذا الوقت ـ لحسن طالع الاشكنازيين ـ مستوى من الكفاية الاقتصادية لم تعد تخشى معه تلك الامم تعريض نفسها للمنافسة الاقتصادية اليهودية ، مثلما حدث فى انجلترا فى عصر الكومنولث ، وقتما أذن كروموبل (١٦٥٣ ـ ١٦٥٨) لليهود بالعودة لانجلترا .

وجاء تحرير اليهود فى الغرب فى الوقت المناسب ليهيىء مخرجا جديدا ليهود الطائفة الاشكنازية فى الامبراطورية الروسية • وذلك عندما وصلت بهم رحلتهم القديمة نحو الشرق الى الحائط الذى لا منفذ له والذى يكون حد الامبراطورية الروسية الغربى • وطفق مد الهجرة الاشكنازية يتراجع طوال القرن الماضى، من الشرق الى الغرب ، من الامبراطورية الروسية الى انجلترا والولايات المتحدة • ولم يكن مستغربا أن تبدى الاشكنازية ـ وهذا ماضيها ـ التى أودعها بين ظهرانى الشعوب الغربية تراجع المد والجزر هذا ، ما يدعى بالنفسية اليهودية . بشكل أكثر وضوحا من طائفة السفاردية اخوان الطائفة الاشكنازية فى الدين الذين وضعهم طالعهم فى أماكن كانوا فيها أسعد حالا •

ويفسر الأستاذ توينبى ضعف حدة « الروح اليهودية »

الذى يلاحظه الباحث بين مهاجرى طائفة السفاردية من أسبانيا والبرتغال ، بحياتهم السابقة فى دار السلام ، فى فارس وفى المقاطعات الرومانية التى استولى عليها العرب فى نهاية الامر ، وجد أصحاب التشتت اليهودى أنفسهم فى مركز أسعد نسبيا • بل انه من المؤكد أن وضعهم فى عهد الخلافة العباسية لم يكن ليقل عن وضع اليهود فى الوقت الحاضر فى تلك الدول الغربية التى تحرر فيها اليهود فى وقتنا هذا • لكن حلت بطائفة السفارديم مصيبة تاريخية وقتما انتقلت شبه جزيرة ايبريا (اسبانيا والبرتغال) تدريجيا من المسلمين الى المسيحيين الغربيين ، وهو الانتقال الذى تم فى نهاية القرن الخامس عشر وقتما عرض عليهم غزاتهم المسيحيون أن يختاروا بين أمور ثلاثة : ـ الابادة ، أو الطرد ، أو اعتناق المسيحية •

فاذا ألقى الباحث نظرة على مآل أفراد سفاردية شبه الجزيرة الأيبيرية الذين أنقذوا حياتهم بقبولهم احدى طريقتى الاختيار الأخيرتين ـ ولا تزال ذريتهم باقية حتى اليوم ـ وجد أولئك الذين آثروا المنفى ملاذا لدى أعداء أسبانيا والبرتغال الكاثوليكيين ، فى هولندا وتركيا وتوسكانى • أما أولئك الذين قصدوا تركيا ، فقد شجعهم حماتهم من الأتراك العثمانيين على الاقامة فى القسطنطينية وسالونيك وفى المراكز الحقيرة الصغيرة في الروميللى ليسدوا الفراغ الناشىء عن زوال الطبقة اليونانية المتوسطة

الحضرية السابقة أو فنائها • فاستطاع اللاجئون من طائفة اليهود السفارديين ـ فى ظل هذه الظروف المواتية ـ أن يتخصصوا فى التجارة وأن تروج أحوالهم من غير أن تبرز بينهم تلك النفسية اليهودية التى تتجلى فى الاشكنازيين بأوضح صورة .

أما بالنسبة للمارانوس ـ يهود شبه جزيرة أيبريا الذين ارتضوا اعتناق الدين المسيحى منذ أربعة أو خمسة قرون مضت ـ فقد هبطت حدة صفاتهم اليهودية المميزة الى حد التلاشى تقريبا • وهناك أكثر من سبب يحمل على الاعتقاد بوجود صبغة قوية فى الوقت الحاضر من دم هؤلاء اليهود المرتدين فى عروق الابيريين سكان أسبانيا والبرتغال لا سيما فى الطبقات العليا والمتوسطة . بيد أنه يصعب على أكثر المحللين النفسانيين حذقا ، ان يستشف أصحاب الأصل اليهودى ان عرضت عليه عينات حية من الطبقة العليا والوسطى الحاليتين من الأسبانيين والبرتغاليين .

٢ ـ الغرب الحديث واليهود

كانت اليهودية فى الشكل الذى اصطدمت به مع المسيحية الغربية ، ظاهرة اجتماعية شاذة بحسبانها

فضلة متحجرة من حضارة بادت وانقضت فى كل مظاهرها فلقد كانت دولة يهودا الاقليمية السريانية ــ وعنها انبثقت اليهودية ــ واحدة من الطوائف البدائية ، الفينيقية الآرامية الفلسطينية • ولكن بينما فقدت الطوائف الاخرى شقيقات طائفة يهودا كيانها ــ كما فقدت صفتها كدولة ــ بفعل المصائب القاتلة التى توالت على المجتمع السورى نتيجة لصادماته المتعاقبة مع جاريه البابلى والهيلنى ، فان هذا التحدى نفسه الذى واجهه اليهود ، قد استثارهم ليبدعوا لأنفسهم طرازا طريفا من الكيان الطائفى • وفى داخل نطاق هذا الطراز الجديد ، استعاضوا عن فقدان دولتهم وبلادهم بالاحتفاظ بذاتيتهم فى صورة تشتت Diaspora بين ظهرانى أغلبية أجنبية وفى ظل حكم أجنبى •

وليس رد الفعل اليهودى الموفق هذا بالشىء الفريد فى نوعه ، فان لتشتت اليهود فى أرجاء العالمين الاسلامى والمسيحى ، ما يماثله فى تشتت طائفة « البارسى » فى أنحاء الهند • وهذه الطائفة هى كذلك بقية متحجرة من بقايا المجتمع السورى نفسه • البارسيون هم بقايا من تحولوا الى الحضارة السورية التى منحت المجتمع السورى دولته العالمية فى شكل امبراطورية فارسية ، أن طائفة البارسيين ــ كاليهود ــ رمز حى لارادة الحياة بعد فقدان الدولة والوطن • وهذه الخسارة للدولة والوطن جاءت ــ مثلما حدث لليهود ــ نتيجة مصادمات متتالية بين العالم

السورى والمجتمعات المجاورة له . وكما بذل اليهود من تضحيات خلال القرون الثلاثة المنتهية فى عام ١٣٥ ميلادية ضحى الآباء الأولون للبارسيين من أتباع زرادشت بأنفسهم فى محاولة فاشلة للتخلص من تأثير دخيل للحضـــارة الهلينية . وكما دفع اليهود الثمن الذى اقتضته منهـم الامبراطورية الرومانية جزاء فشلهم ، كذلك دفع الايرانيون من أتباع زرادشت جزاء فشلهم الثمن الذى اقتضـــاه الفاتحون العرب المسلمون فى القرن السابع الميلادى .

وحافظ اليهود والبارســـيون فى هاتين الأزمتين المتماثلتين من تاريخيهما كل على ذاتيته ، بفضل استنباطه نظما جديدة والتخصص فى مجالات جديدة من العمل . ولقد وجد كل منهما فى أحكام شريعته الدينية وشيجـــة اجتماعية تربط بين أفراد الطائفة . ونجـــوا من عواقب الكارثة الاقتصادية التى أنزلها بهم انتزاعهـــم من أرض آبائهم ، بتنميتهم – وهم فى المنفى – مهارة خاصة فى شئون التجارة وغيرها من الحرف الحضرية ، فاستعاضوا بها عن الفلاحة التى لم يعد يتيسر لهؤلاء المنفيين المجردين من الارض ممارستها .

ولم يكن هؤلاء المشردون من اليهود والبارسيين وحدهم هم البقايا المتحجرة التى خلفها وراءه المجتمع السورى البائد اذ أخرجت البدع الدينية المسيحية المناهضة للهلينيـــة والتى ظهرت خلال الحقبة الواقعة بين تأسيس المسيحيـة

وقيام الاسلام : أخرجت بقايا متحجرة فى شكل الكنيستين « النسطورية » و « المينوفيستية » •

كما أن المجتمع السورى لم يكن وحده المجتمع الذى وفقت الطوائف المنبثقة عنه فى أن تعيش بفضل الجمع بين التنظيم الروحانى والعمل التجارى بعد أن فقدت دولتها وأخرجت من ديارها • فان الطائفة اليونانية المسيحية الأرثوذكسية التى خضعت لنظام عثمانى غريب عليها وأخرجت من ديارها ـ الى حد ما ـ قد استجابت لتحدى هذا النظام باحداثها تغييرات فى تنظيماتها الاجتماعية ومناحى نشاطها الاقتصادى ، الأمر الذى سار بها شوطا بعيدا فى مصير « التشتت » من نفس النوع الذى سبق ذكره •

وحقا كانت الطوائف الدينية فى الامبراطورية العثمانية مجرد صيغة أخرى للبناء الطائفى فى المجتمع ، ذلك البناء الذى نما تلقائيا فى العالم السورى بعد أن سحقت الدولة السورية واختلطت الشعوب السورية إختلاطا معقدا بفعل عدوان العسكرية الاشورية ، وأسفر ذلك عن اعادة وصل ما انقطع من أجزاء المجتمع على شكل شبكة من الطوائف المختلطة ، عوضا عن التنظيم السابق لهذا المجتمع فى شكل مرقعة من الدول الاقليمية المعزولة جغرافيا • وورث هذا الأسلوب فى اعادة تشكيل المجتمع السريانى (السورى) خلفاؤه المسلمون من العرب والايرانيين ، ثم فرضه فيما

بعد بناة الامبراطورية العثمانية على الشعوب المسيحية الأرثوذكسية التى خضعت لحكمهم ٠

وعلى هدى هذه النظرة التاريخية الشاملة ، يتضح لنا أن التشتت اليهودى كان فى تلاقيه بالمسيحية الغربية أبعد من أن يكون ظاهرة اجتماعية فريدة فى نوعها ٠ بل كان ـ على العكس ـ عينة لنموذج من طائفة غدا الطراز المعروف فى أرجاء العالم الاسلامى الذى تشتت اليهود فيه ، وفى العالم المسيحي الغربى ٠ لهذا قد يتساءل المرء بحق ، عما اذا كان الوضع الاجتماعى الخاص الذى أسفر عنه التلاقى المفجع بين اليهودية والمسيحية الغربية لا يرجع الى خصائص معينة فى جانب المسيحية الغربية . لا تقل مما يوجد منها فى الجانب اليهودى ٠ وفى وسعنا اذ نطرح هذا السؤال أن نستبين ان التاريخ الغربى قد تميزا بحق بثلاثة اعتبارات تتصل جميعها بتاريخ العلاقات اليهودية الغربية :

أولا ـ أن المجتمع الغربى قد نظم نفسه فى شكل مرقعة من الدول الاقليمية المنعزلة احداها عن الأخرى جغرافيا ٠

ثانيا ـ ان ذلك المجتمع قد طور نفسه تدريجيا من مجتمع مغرق فى اقتصاده الزراعى ، يتكون من فلاحين وملاك أرض الى مجتمع مغرق فى نزعته الحضرية قوامه الصناع والبورجوازية

ثالثا ـ هذا المجتمع الغربى فى شكله الاخير القائم على الفكرة القومية وعقلية الطبقة الوسطى ، انبعث من بين طيات الظلام النسبى الذى ران عليه فى ابان القــرون الوسطى ، ثم مضى سريعا ليبسط ظله على سائر الدنيا .

ويفصح تاريخ تشتت اليهود فى شبه جزيرة أيبريا عن الارتباط الكامن بين النزعة المعادية للسامية وبين المثل الأعلى للمسيحية الغربية وقوامه : تجانس الجماعة التى تنتظم جميع السكان فى اقليم معين .

فما ان التأمت الهوة بين طائفتى الرومــان والقوط الغربيين ـ بفضل تحول القوط الغربيين عام ٥٨٧ م من المسيحية الآرية الى المسيحية الكاثوليكية ـ حتى حدث فى بلاد القوط الغربيين توتر بين الجماعة المسيحية الموحــدة والطائفة اليهودية التى زاد تبعا لذلك شعورها بذاتيتهــا وتسجل تزايد حدة التوتر سلسلة من التشريعات المناهضة لليهود تناهض تماما التشريع الانسانى الذى صدر في نفس الوقت عن القوط الغربيين لحماية العبيد من اســـتبداد سادتهم . على أن هذه التشريعات السامى منها والمنحط على السوء دليل على نفوذ الكنيسة على الدولة .

وفى تلك الظروف تآمر فى نهاية الأمر يهود جزيرة أيبريا مع اخوانهــم فى الدين فى شــمال افريقيا لاغراء العرب المسلمين بفتح أسبانيا . وتلا الفتح انبعاث نظام

اسلامى فى شبه الجزيرة لبث خمسمائة عام (٧١١ م ـ ١٢١٢) • وفى ظل الحكم الاسلامى لم تعد الطائفة اليهودية وقد أصبحت تستمتع بالحكم الذاتى ، قوما لهم طابع خاص • لكن لم تستمر هناءة الطائفة اليهودية فى شبه الجزيرة بعد انهيار الحكم الاسلامى • فان برابرة القرون الوسطى من المسيحيين الكاثوليك الذين غزوا أملاك الخلافة الأموية الأندلسية قد نذروا أنفسهم لتحقيق المثل الأعلى للجماعة المسيحية المتجانسة • فكان أن اضطر اليهود فى الفترة الواقعة بين عامى ١٣٩١ و ١٤٩٧ للخروج الى المنفى أو الاعتراف باعتناق المسيحية •

وهذا المثل الاعلى للجماعة المسيحية المتجانسة الذى كان الدافع السياسى لضيق المسيحية الغربية ذرعا بوجود الأغراب اليهود بين ظهرانيها ، عززته تطورات اقتصادية واجتماعية على مر الايام •

فما الموطن الذى نشأ فيه المجتمع الغربى الا بقيـــة قصية من العالم الهلينى ، أخفقت الثقافة الحضرية الهيلينية فى تأصيل جذورها فيه . والحياة الحضرية الظاهرة على سطح المجتمع التى أقيمت على أسس زراعية بدائية قد ظهر أنها عمل معوق بدلا من أن تكون عامل دفع واستثارة فما أن تقوض ـ تحت ثقل نفسه ـ هذا البناء السطحى الغريب الذى شيده الرومان ، حتى عاد الغرب فارتد الى

نفس المستوى الاقتصادى الواطىء الذى كان عليه قبلما تسعى الحضارة الهيلينية لغرس بذورها وراء جبال الابنين أو عبر البحر التيرانى • وترتب بالذات على هذا التأخر الاقتصادى نتيجتان : -

الأولى - انتشار اليهود المشتتين فى أرجاء العالم المسيحى الغربى • اذ عثر اليهود على ثغرة فى الغرب نفذوا منها الى العمل لتدبير معاشهم • وذلك بتزويد المجتمع وما كان فى وسع أى بلد زراعى قح أن يعيش بدون هذا الحد من الخبرة التجارية والتنظيم • بل لم يكن هذا البلد ليستطيع - فى ظروفه وقتذاك - القيام بموارده الخاصة •

الثانية - طموح المسيحيين فى المجتمع الغربى الى أن يحلوا محل اليهود عن طريق اتقانهم الفنون اليهودية المربحة •

وعلى مر الاجيال بذل المسيحيون فى الغرب جهودا جبارة فى هذا الميدان الاقتصادى الذى كان احتكارا لليهود أجدت عليهم فى النهاية أرباحا مثيرة • فلم يحل القرن العشرون للميلاد حتى كانت المؤخرة الشرقية من طابور الشعوب الغربية (أى بولندا والمجر وليتوانيا) - فى زحفها الطويل نحو هدفها الذى تتطلع اليه وهوبلوغ الكفاية الاقتصادية - تمر فى عملية تحول حققتها قبلها بألف عام شعوب شمال ايطاليا والفلمنك ، وقد كانوا الرواد

الأولى لحركة يمكن أن نطلق عليها دون أن نجاوز الحقيقة في كلتا الحالتين «التهود» أى اصطناع الاساليب اليهودية ٠

وكان ظهور طبقة من المسيحيين المؤهلين لانجاز جميع الأعمال التى تخصص فيها اليهود ثم تطلعهم بالتالى الى طرد اليهود ، عاملا فى التاريخ الغربى يدل على بلوغ هـذه المرحلة الاجتماعية من التقدم العصرى ٠ ولقد مر الصراع الاقتصادى بين اليهود والمسيحيين فى الغرب فى ثلاثة فصـول :

ففى الفصل الأول ـ كان اليهود موضع الكراهية بقدر ما كانوا طائفة لا غنى للمجتمع عنها ٠ بيد أن سوء المعاملة التى كانوا يلقونها ، كان يحد منها عجز مضطهديهم من المسيحيين عن تدبير شئونهم اقتصاديا بدون اليهود ٠

واستهل الفصل الثانى فى البلاد الغربية ـ الواحد تلو الآخـر ـ بمجرد أن استحوذت البورجوازية المسيحية الناشئة على قدر كاف من الخبرة والمهارة ورأس المال ، بث فيها شعور القدرة على انتزاع المكانة التى يحتلها اليهود المحليون ٠ وعند هذه المرحلة ، استخدمت البورجوازيـة المسيحية قوتها التى فازت بها لتؤمن طرد منافسيهـا من اليهود ٠ وهذه المرحلة بلغتها انجلترا فى القرن الثالث عشر الميلادى واسبانيا فى الخامس عشر ، وبولندا والمجر فى القرن العشرين ٠

وفى الفصل الثالث كانت البورجوازية المسيحية قد

وطدت مكانتها ، وتمكنت تماما من الفنون الاقتصادية لدى اليهود الى درجة لم يعد خوفها التقليدى من عواقب الاستسلام للمنافسة اليهودية - يمنعها من الافادة من المقدرة الاقتصادية عند اليهود لخدمة الاقتصاد المسيحى ، وبهذه الروح أجازت حكومة توسكانا عام ١٥٩٣ وما بعده للاجئين اليهود الوافدين من أسبانيا والبرتغال الاستقرار فى لجهورن . وكانت هولندا منذ عام ١٥٧٩ قد فتحت أبوابها لهم . أما انجلترا التى أحست فى نفسها القوة الكافية لطرد اليهود منها عام ١٢٩٠ عادت فشعرت مثل هذه القوة لتجيز لهم العودة اليها منذ عام ١٦٥٥ .

وسرعان ما تلا تحرر اليهود اقتصاديا خلال العصر الحديث من تاريخ الغرب تحررهم اجتماعيا وسياسيا ، نتيجة الثورات الدينية والايديولوجية المعاصرة فى العالم المسيحى الغربى . فان الاصلاح البروتستانتى قد حطم جبهة الكنيسة الكاثوليكية الموحدة والمعادية لليهودية . ومصداقا لهذا ، نجد انجلترا وهولندا في ابان القرن السابع عشر ترحبان باللاجئين من اليهود ، باعتبارهم ضحايا الكاثوليكية الرومانية عدوة هذين البلدين البروتستانتيين . وترتب على هذا أن شارك اليهود - بصفة عامة - فى ثمرات روح التسامح المطرد فى النمو فى البلاد البروتستانتية والكاثوليكية على السواء . وما أن حل عام ١٩١٤ حتى كان تحرر اليهود - رسميا فى

جميع مجالات النشاط البشرى ـ حقيقة مقررة منذ أمد طويل ، فى جميع بقاع العالم الغربى الحديث . وذلك باستثناء تلك الأراضى التى كانت تكون فيما مضى المملكة المتحدة لبولندا وليتوانيا والتى ضمت أخـــيرا الى الامبراطورية الروسية .

ولقد قر فى الأذهان كما لو أن المشكلة اليهودية قد وجدت حلا يقوم على امتزاج الجماعتين المسيحية واليهودية عن طريق اتحاد قائم على حرية الاختيار من كلا الفريقين . لكن ما لبث أن دخلت المشكلة اليهودية فى فصل رابع أشد هولا من أى شىء ســبقه . فما الذى قاد الى هذا المصير ؟

لقد نكأ الجرح القديم ذلك الحاجز السيكلوجى الذى ما برح قائما بين المسيحيين من أهل الغرب واليهود . وحتى بعد أن أزيلت ـ رسميا ـ الفوارق القانونيـــة بينهما كان ثمة « جيتو » (١) استمر المسيحيون يحصرون اليهود داخل نطاقه . كما تابع اليهود ـ من ناحيتهم ـ عزل أنفسهم عن المجتمع المسيحى الغربى . فما انفك اليهودى وهو يعيش فى مجتمع موحد من الوجهة الرسمية يجد نفسه شخصـــا منبوذا بمختلف الأساليب الملتوية ، بينما ألفى الانسان المسيحى نفسه لا يزال يجابه تضامنا وثيقا ـ ماسونيا ـ

(١) الجيتو Ghetto حى اليهود ، وكان لايسمح لهم بالاقامة خارج حدوده .

يربط اليهود بعضهم ببعض كما يواجه طموحا يهوديا للمطالبة بالمزايا التي يسبغها المجتمع الموحد على جميع أفراده بما في ذلك اليهود ، لكن اليهود ـ من جانبهم ـ ما كانوا على استعداد لمنح غيرهم هذه المزايا .

فكان أن واصل الفريقان كلاهما اتباع مقياس مزدوج فكان ثمة سلوك رفيع لتعامل المرء مع أفراد طائفته ،وسلوك آخر أقل مستوى يتعامل به مع بقية مواطنيه ـ بالاسم ـ الساكنين فى الجانب الآخر وراء الحاجز الاجتماعى الذى كان مفروضا أنه لم يعد قائما . وأن هذا الرداء الجديد من النفاق الذى تحفظ فى طياته رذيلة الجور القديمة ، عمق شعور الازدراء والاستهانة الذى يحس به كل فريق ازاء الآخر . ومن ثم جعل الموقف بينهما أشد توترا وأقل احتمالا .

وأظهر تجدد النزعة المناهضة للسامية . دقة العلاقة بين الطائفتين . وذلك حينما تعاظمت نسبة اليهود العددية الى مجموع السكان من العنصر المسيحى ، فبدا هذا الاتجاه واضحا للعيان عام ١٩١٤ فى لندن ونيويورك نتيجة للهجرة اليهودية التى تدفقت منذ عام ١٨٨١ من الاراضى البولندية واللتوانية السابقة التى ضمت للامبراطورية الروسية . هجرة تمت بتأثير الاضطهاد القيصرى . واشتدت هذه النزعة ضراوة فى النمسا الالمانية وفى الرايخ الالمانى نتيجة لهجرة يهودية أخرى ، وفدت اليهما خلال الحرب العالمية

الاولى من غاليسيا وبولندا ومن المقاطعات الشرقية لما يسمى ب « الحظيرة الروسية » ٠ ولم تكن هذه النزعة المناهضـــة للسامية فى ألمانيا هى أضعف العوامل التى حملت النازيين الألمان الى تقلد زمام الحكم ٠

الفصل الخامس

الفكر اليهودى بين القومية والعالمية

١ ـ الشعوبية اليهودية

ثمة شعور دائم بالكراهية بين اليهود وغيرهم قاد الى تلك المآسى التى حلت باليهود والمذابح التى تعرضوا لها على مدار تاريخهم • ومناط هذا الشعور عجز اليهود وغيرهم ـ على السواء ـ عن وضع تعريف لليهودى • فهل يقصد بالاصطلاح تابع لديانة اسمها اليهـــودية ، أو أنه يعنى المساهم فى ثقافة جماعة تتشبث بأصالتها الشعوبية رغـم تشتتها وتفرقها بين الأمم ؟ وهذا التعصب للشعوبية هو الذى حال بين اليهودية ومن أن تصبح عقيدة عالمية تفىء الى ظلالها الأمم والأجناس على اختلافها • بل ان اليهودية ـ بلسان التلمود ـ لتضع خطا فاصلا يميز بين حقـــوق اليهودى وحقوق غيره من أبناء الشعوب الاخرى • وهـذا التعصب الشعوبى اليهودى هو الذى جعل ظهورالمسيحية والاسلام كدينيين عالميين أمرا مقضيا ورحمة أدرك الله بها عباده : كما بينا بموضع سابق من هذه الدراسة •

ولقد بلغ من حرص اليهود على شعوربيتهم أن ابتـكر أحبارهم فكرة الشعب المختار وبثوا فى أبناء قومهم الايمان بأنهم شعب مختار ذو رسالة قومية • وابتغوا أن يمنحهم

ذلك الايمان القدرة الروحية على الحفاظ على ذاتيتهم طوال تشتتهم بين الامم عقب فقدانهم دولتهم القومية وملاذهـــم الوطنى • وبالتالى ، فان عقيدة دينية كان مقدرا لها أن تغدو عقيدة دينية عالمية ، قد انقلبت رسالتها على أيدى من تقبلوها عطية من الله ، الى أداة للحفاظ على وعيهم القومى المميز وذلك باعتبارهم جماعة شاذة ما انفكت تتعمد عزل نفسهـا عن بقية الجنس البشرى ، وان اقتضـــاهم ذلك مشـــــقة وعنادا بالغين ، وعرضهم لاضطهاد العالم لهم ونقمتـــه المتواصلة عليهم .

ومن ثم ، ما برحت اليهودية منذ ظهورها حتى الوقت الحاضر ، عبادة قبلية لجماعة خاصة متفردة ، ولم تتوقف فى أى وقت من تاريخها عن أن تكون جزءا لا يتجزأ من الثقافة الخاصة لهذه الجماعة • وذلك كله رغما عن تطور فكـرة الاله اليهـودى ليصـــبح الحقيقة الروحية المطلقة للـــكون بأسره : أى رغم اسباغ صفة العالمية عليه ، وما يعنيه ذلك من الارهاص بصيرورة العقيدة اليهودية عقيدة للعـالم بأسره . بيد أن تشبث اليهود بنزعتهم القبلية قاد الى تحجر العقيدة اليهودية .

ويعتبر الاستاذ توينبى اليهودية أقبح أمثلة عبـادة الذات الفانية صيتا • وتفسير ذلك أن شـــــعب مملكتى اسرائيل ويهودا قد رفع نفسه مكانا ساميا ابان فترة من

تاريخه الذى بدأ فى طفولة الحضارة السريانية وبلغ الأوج فى عصر الأنبياء • وتم ذلك بفضل تقبله فكرة وحدانية الدين : سمح هذا الشعب لنفسه أن تفتنه فى هذه المرحلة الفذة ـ وان كانت انتقالية ـ فى ارتقائه الروحى فكرة الشعوبية الزائفة • فان اليهود بعد أن تنبئوا بالحقيقة المطلقة الخالدة ، تركوا لأنفسهم العنان لتستهويهم حقيقة ناقصة : نسبية وموقوتة ، مدارها اعتبارهم السمو الروحى الذى بلغوه امتيازا خلعه الرب عليهم وحدهم بموجب عهد أبدى يجعل منهم شعب الله المختار •

وهكذا أضلتهم الحقيقة الناقصة فأردتهم فى خطأ مميت • وأن احتضان اليهود صفة شعب الله المختار قد جرفتهم الى العقم الفكرى • وبذلك قضى على اليهودية كدين عالمى ، لسعيها وراء أمل ضائع ، وحطمت نفسها ببلادة بتحديها قوة روما المادية فى ابان الحرب الرومانية اليهودية فى السنوات : ٦٦ ـ ٧٠ م و ١١٥ ـ ١١٧ و ١٣٢ ـ ١٣٥ فى حين انتشرت المسيحية بفضل اعتناقها صفة الوداعة وتشبثها بأسلوب المسالمة • وكان تنكر اليهود لرسالة المسيح القائمة على المسالمة والوداعة يعنى تنكرها لماضيها بل لقد خسرت اليهودية مستقبلها كذلك لايثار اليهود العنف والقوة المادية البحتة •

٢ ـ علاقات الشعوبية اليهودية ببقية العالم

كانت مصر أول أمة تصادمت مع أطماع الشعوبية اليهودية ولمست الخطر اليهودى • فكان أن استقر فى شعور المصريين الباطن احساس خطر الشعوبية اليهودية فآمنوا إيمانا لا يرقى اليه الشك بضرورة صد الأطماع اليهودية مهما كلفهم الامر • ولم تتوان مصر فى أية مرحلة من تاريخها الطويل العريق عن العمل لكبح جماح الشعوبية اليهودية •

ومهما يكن من أمر التسامح الذى تبديه الشعوب على اختلافها تجاه اليهود ، فما برحوا يصرون على عزل أنفسهم عن المجتمعات الاخرى • ولا يزال الانسان المسيحى أو المسلم يجابه تضامنا وثيقا ـ ماسونيا ـ يربط اليهود بعضهم ببعض • كما يواجه طموحا يهوديا للمطالبة بالمزايا التى يسبغها المجتمع الموحد على جميع أفراده بما فى ذلك اليهود ، بينما لا يبدى اليهود أى استعداد لمنح غيرهم هذه المزايا •

وهكذا تعثرت دعوة الاندماج التى تدعو اليها قلة من اليهود تنادى بأن تكون العقيدة اليهودية كبقية العقائد الدينية • ومن رأيها أن فلسطين تعجز عن استيعاب اليهود جميعا وأن لا مناص من بقاء غالبيتهم الساحقة خارجها ، وان فى تمسك اليهود بذاتيتهم القومية داخل

الأوطان التى ينتسبون اليها من الوجهة الرسمية ، يكمن سر كراهية شعوبها لهم ومعاداتها لليهود عامة . ويمثل هذا الاتجاه فى الولايات المتحدة المجلس الأمريكى لليهودية .

وتتخذ اليهودية العالمية من فكرة « عداء السامية » وسيلة لابتزاز الحكومات والأفراد . وتطالعنا فى هذا المجال اتفاقية التعويضات الألمانية المعقودة فى ١٠ من سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، ووافقت فيها ألمانيا على أن تدفع لاسرائيل مبلغ ٧١٥ مليون دولار من البضائع بالاضافة الى مبلغ ١٠٧ مليون دولار تعويضات لأفراد يهود . لكن أثارت هذه الاتفاقية النفوس الألمانية وأصبحت عاملا من عوامل انتعاش النازية فى ألمانيا ، وأججت كراهية اليهود فى تلك البلاد .

واذا ما ولى الباحث وجهه شطر مركز اليهود فى البلاد الاشتراكية الأوربية ، طالعه سعى اليهودية العالمية الى اخراج يهود تلك البلاد خشية ذوبانهم فى المجتمع الاشتراكى . وتحتج اليهودية العالمية بانبعاث العداء للسامية فى تلك البلاد . وتدلل على رأيها بقيام ستالين عام ١٩٤٨ بترحيل الكتاب اليهود الى سيبيريا واتهام طائفة من الأطباء اليهود عام ١٩٥٢ بالتآمر على اغتيال الزعماء السوفييت ، وما قيل عن عزمه على ترحيل اليهود جميعا الى سيبريا للتوطن فى اقليم « بيروبيدجان »

ذى الحكم الذاتى . وانه وان سمح للكتاب اليهـود بمغادرة سيبريا بعد وفاة ستالين ، لكن لايسمح لليهود فى الوقت الحاضر باصدار صحيفة بلغة يهود أوروبا الشرقية «اليديش» بالاضافة لتحريم تعليم تلك اللغــة بالمدارس مما ينبىء ــ كما تقرر اليهودية العالمية ــ عن نية الدولة السوفيتية لاهدار الذاتية اليهودية المميزة وتحويل اليهود السوفييت الى مواطنين عاديين . وتدلل اليهودية العالمية على تآكل الذاتية اليهودية فى الاتحاد السوفييتى بما لاحظه وفد الحاخامات اليهود الأمريكيين الى روسيا من توق اليهود فيها لاشباع جوعهم الروحى ــ كما قالوا فى تقريرهم ــ لكن الدولة السوفيتية لا تتيح لهم الفرصة . ولا يجــد الجيل الحديث المدارس والكتب التى تبث الذاتيـــة اليهودية المميزة فى عقول اليهود السوفييت ونفوسهم ، كما لا توجد الزعامة التى تجمع حولها هؤلاء اليهود فتحيلهم ــ كما فى الولايات المتحدة ــ الى قوة تعلن ارادتها ومطالبها ولاتسمح السلطات السوفيتية بتداول المطبوعات الصهيونية ولا تأذن لأى يهودى بالهجرة من البلاد .

٣ ـ العلاقة بين المسيحية واليهودية

بقدر ما كانت العلاقة بين المسيحية واليهوديةواضحة لليهود وضوحا يلعنونه ، كانت غامضة للضمائر المسيحية غموضا مربكا .

وبعبارة أوضح ، كانت العقيدة المسيحية فى أعين اليهود ، نحلة يهودية مارقة • ويصفون الانجيل بأنهاضافة أقحمت على التوراة ، وما السيد المســــيح لدىاليهود الا حاخام يهودى اجتمع حوله خونة العقيدة اليهودية ،وقد كرمه أتباعه بعد وفاته بأسلوب كان شائعا بين الوثنيين اذ اعتبروه ابن الله من أم بشرية فألصقوا به الاساطير التى كانت شائعة عن البشر المؤلهين أو الآلهة ذوى الصــفات البشرية أمثال أوزوريس فى الاساطير المصرية القديمة ، وديونيسيوس في الأساطير اليونانية (وديونيسيوس هو باخوس فى الأساطير الرومانية ، اعتبر فى العصور المتأخرة أب الخمور لكنه فى الأصل الروح التى تتحكم فى مصــائر الانبات وتسيطر على الزراعة) • وتخـــادع اليهودية نفسها بأنه كان فى وسعها أن تحرز انتصارات المسيحية فى استهواء العالم الهلينى لو أنها أحنت راســها لفكرة التوسع ونزلت الى مستوى المسيحية •

أما المسيحية فانها لم تنكر اطلاقا شرعية كتــاب اليهود المقدس ، بل انها قد ادمجته فى كتابها المقدس ذاته واستطاعت المسيحية ـ وفقا لوجهة النظر اليهودية ـ انجاز فتوحاتها فى يسر وسهولة بفضــل اعراضها عن مبدأين أساسيين تضمنتها الوصيتان الأولى والثانيــة من الوصايا العشر : الوحدانية ، ونبذ عبادة الصوروالتماثيل •

وتستطرد اليهودية قائلة بأن عقيدتها اذ تواجه وثنية عاتية ظاهرة بوضوح تحت قشرة المسيحية ، غدا واجبا عليهــا أن صامدة متمسكة بأداء رسالتها فى حمل كلمة الرب السرمدية .

والحق أن الاخلاص التام للوحدانية وتحريم تقديس الصـور والتماثيل تحريما لا هوادة فيه ، لم يحـل بين اليهودية وكراهية الاسلام كراهية عمياء والكيد للمسلمين منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى الآن . وفى هذا يقول الله فى محكم آياته « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » .

وفى اعتقادى أن عداء اليهود للمســيحية له عاملان أساسيان : ــ

الأول ــ روحانية المسيحية . فانها تنادى بأن ملكوت الرب فى الآخرة لا فى الدنيا . وهذا عكس ما تنادى به اليهودية من أن ملكوت الرب فى الدنيا وانه تعـالى قد اصطفى اليهود دون بقية البشر فوعدهـــم باقامة دولة عاصمتها أورشليم تتحكم فى أنحاء العـالم بأسره ويكون اليهود فيها السادة وغيرهم (ويطلقــون عليهم الأميين ــ الجويم ــ) العبيد .

الثانى ــ اعتقاد اليهود بأن الخلاص (أو الغفران)

يمنحه الرب لليهود وحدهم • وهذا الخلاص ـ كما سلف القول ـ له صورة دنيوية تعنى تمليك اليهود رقاب البشر وأخرى أخروية تعنى استئثار اليهود بجنة الله وحدهم • فى حين أن الخلاص عند المسيحية للبشر جميعا وصورته روحية •

ويكره اليهود الاسلام لأنه سلبهم احتكار مبـــدأ الروحانية ، ولأن الاسلام يتسامى فى مبادئه على اليهودية بما لا يقاس • بالاضافة الى عالمية الدين الاسلامى • فالايمان بالله الواحد الاحد الفرد الصمد ليس نعمة اختص الله بها اليهود وحدهم أو أى جنس آخر ، بل انها متاحة للبشر جميعا لا فرق بين عنصر وآخر •

ولقد هاجمت الروح القومية الغربية الحديثة فكرة الانتشار اليهودى فى العالم الغربى على جبهتين فى وقت واحد •

فالروح القومية الغربية بجاذبيتها من ناحية وضغطها فى الوقت نفسه من ناحية أخرى ، قد دفعت اليهـــــود الغربيين الى اختراع قومية تقتصر عليهم وحدهم ، ويمكن وصفها بأنها شكل جماعى للاقتباس من الغرب ، ان قورن بالشكل الفردى من هذا الاقتباس الذى يقترن ـ عنـــد اليهود ـ بعصر الليبرالية الذى بلغ أوجه فى ابان القرن التاسع عشر •

واذا كان المثل الاعلى فى التأثر بالغرب هو تحويل الفرد اليهودى الى بورجوازى غربى يدين باليهودية • فان المثل الأعلى البديل له يهدف الى تركيز اليهود المشتتين ـ أو جانب منهم ـ فى دولة قومية خاصة بهم لا تضم الا سكانا متجانسين من اليهود • هذان الاتجاهان دليلان على أن تحرير اليهود كان من الصدق بحيث مكنهم من الاستجابة للأفكار الغربية الشائعة •

٤ ـ اتجاهات الشعوبية اليهودية

كانت الصهيونية فى الوقت ذاته ـ بشهادة مؤسسها تيودور هرزل Theodor Herzl ـ قرينة على قلق اليهود من اغلاق الطريق الذى يؤدى الى استيعابهم كأفراد فى المجتمعات الأخرى ، بتأثير العصبية القومية بين المسيحين الغربيين تلك العصبية التى وفدت سريعا فى أعقاب النزعة الليبرالية وقد لا يكون من قبيل المصادفة ـ والحالة هذه ـ أن تنبعث على التتابع : الصهيونية اليهودية والنزعة الجديدة المناهضة للسامية ، فى نفس المنطقة الجغرافية ، وهى الأراضى التى يتحدث أهلها الألمانية من الامبراطورية النمسوية ، قبل تفككها عام ١٩١٨ . ومن بين جميع سخريات التاريخ الكئيبة لا يلقى أى منها ضياء نافذا على الطبيعة البشرية ، مثلما تلقيه تلك الحقيقة السافرة ، وهى أنه غداة أفظع ألوان الاضطهاد المتعددة التى حلت بالشعب اليهودى فى

تاريخه ، نجد اليهود أصحاب النموذج القومى الجـديد ـ الصهيونية ـ يقيمون على أنفسهم الحجة بأن الدرس الذى تعلمه الصهاينة من الفظائع التى قام بها النازى ضد اليهود لم يدفعهم الى تنكب ارتكاب نفس الجريمة التى كانوا هـم ضحاياها . بل راحوا يضطهدون شعبا أضعف منهم وهم الفلسطينيون العرب ، الذين كانت كل جريمتهـم لدى اليهود ان فلسطين كانت وطن أجدادهم .

واذا كان اليهود الاسرائيليون لم يقتفوا آثار النازيين الى درجة ابادة العرب فى معسكرات الاعتقال وحجرات الغاز فانهم استصفوا غالبيتهم وقد جاوزوانصف مليون ـ بطردهم من الأراضى التى شغلوها وزرعوها أجيالا هم وآباؤهم من قبل ، والاستيلاء على المتـاع الذى عجزوا عن حمله أثنـاء فرارهم ومن ثم أصبح العرب ، فى حالة العدم ، وغـدوا « قوما لاجئين » وأثبتت هذه التجربة الصهيونية ، فيمـا أثبتت من نتائج ، نقطة وردت فى مكان سابق من هذه الدراسة . الا وهى ان الخصائص « اليهودية » التى طالما ألصقها المسيحيون منذ أمد طويل باليهود المقيمين بين ظهرانيهم ، هى حصيلة الملابسات الخاصة التى صـاحبت تشتت اليهود فى أنحاء العالم الغربى . ولا ترجع ـ أى الخصائص اليهودية ـ الى أية خلة عنصرية خاصة موروثة .

ان تنـاقض الصـهيونية ، أنهـا اذ تبذل جهدها الشيطانى لتشييد صرح جماعة يهودية لحما ودما مابرحت

تعمل بنفس القدر من النشاط لانحراط اليهود فى عالم غربي ، مثلما دأب الفرد اليهودي على التطلع الى ان يصبح بورجوازيا غربيا يهودى العقيدة ، أو بورجوازيا لا ادريا .

ان اليهوديه فى تاريخها ، عباره عن نشتت ، وان الطبع اليهودى والنظم اليهودية - من ولاء مغرق فى الحدر لشريعه موسى ، والتزام تام لقواعد وأحكام التعامل التجارى والمالى - كانت من الاعمال التى جعل منها التشتت اليهودى على مر الايام والعصور ، طلاسم اجتماعية ،منحت هذه الطائفة المتفرقة جغرافيا ، قدرة سحرية على البقاء ولكن يهودا محدثين اصطبغوا بالصبغة الغربية - سواء انتموا الى المدرسة الليبرالية أو الى الصهيونية - خرجوا على هذا الماضى التاريخى . وكان خروج الصهيونية عليه أشد عنفا ، مما فعله اليهود مريدو الليبرالية .

فان الصهيونية بنبذها تقاليد (التشتت) اليهودى جملة ، لتقيم أمة جديدة على ظهر الارض على غرار مافعله الرواد البروتستانت المحدثون من المسيحيين الغربيين الذين أقاموا الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد جنوب أفريقيا واستراليا ونيوزيلنده . أجل ان الصهيونيين بعقليتهم هذه كانوا يدمجون أنفسهم فى الوسط الذى يطلقون عليه « الأممى » واذا كانوا يقولون بتلقيهم الوحى من أسفارهم فان هذا الوحى ليس هو الوحى الذى تلقوه عن شريعة موسى ، ولا هو وحى الأنبياء ، لكنه وحى تلقوه من القصص الواردة فى سفرى الخروج ويشوع .

فلقد ورد فى سفر الخروج آية ٣٦ اصحاح ١٢ ، أن اليهود سلبوا المصريين الفضة والذهب والأمتعة والثياب . كذلك جاء فى الآيات ٢٩ ــ ٣١ من نفس الاصحاح أن الرب ــ رب اليهود ــ ضرب المصريين جميعا من فرعون الى الاسير فى السجن ، بل ضرب كل بهيمة حتى لم يكن بيت ليس فيه ميت . وورد فى سفر يشوع ــ ويشوع خلف موسى بعد موته (أو قتله فى رأى فرويد العــالم النفســــانى اليهودى) ان الرب أمره بالاستيلاء بالقوة على كل أرض تدوسها أقدام بنى اسرائيل من البرية ولبنان الى نهـــر الفرات والى البحر الكبير نحو مغرب الشمس . وورد فى الاصحاح السادس من هذا السفر (آيات ٣١ ــ ٣٥) تفصيل ما فعله اليهود بمدينة أريحا عند دخولهم اياهــا بقيادة يشوع . اذ سلبوا المدينة وقتلوا أهلها ولم ينج منهم ــ كما تقول الآية ٣١ ــ رجل أو امرأة أو شيخ ، حتى البقر والغنم والحمير ذبحها اليهود ، لكن نجت امرأة تصفها التوراة بأنها زانية تدعى راحاب لأنها خبأت لديها جاسوسين اسرائيليين بعد ما أمضيا الليلة فى فراشها ــ كما تقول التوراة . ولقد خلدت حكومة اسرائيل اسم هذه المرأة الزانية باطلاق اسمها على مدينة راحابوت . وفعل اليهــود بالمدن والقرى الاخرى التى دخلوها بقيادة يشوع ما فعلوه بأريحا من سلب وذبح وتخريب فى معاملتها لعرب فلسطين وبهذه الروح اتجه الصهاينة الى احالة نفسهم الى ارهابيين .

ولا يمكن فى بحثنا عن الصهيونية أن نغفل اتجاه السياسة الامريكية المؤيد لاسرائيل قلبا وقالبا • والحق ، ما برح العامل المحدد لسياستها الفلسطينية كامنا حتى اليوم ـ كما يقرر الأستاذ توينبى ـ فى التفاوت الكبير فى عدد وثراء ونفوذ كل من العنصرين اليهودى والعربى فى مجموعة سكان تلك البلاد • اذ يبدو الامريكيون العرب ـ ان قورنوا باليهود الامريكيين ـ كما مهملا ، حتى وان أخذ فى الحسبان أولئك العرب اللبنانيون ذوو الأصل المسيحى • أما الجانب اليهودى من كتلة المواطنين الامريكيين ، فانه يمارس سلطانا سياسيا لا يتناسب اطلاقا مع عدد أفراده ذلك لأن اليهود الامريكيين يتركزون بمدينة نيويورك ، وهذا أمر له وزنه فى معترك المنافسة على كسب الأصوات فى السياسة الأمريكية المحلية فى دولة رئيسية • على أن تقديرات الساسة من المسيحيين الأمريكيين المستهترين لأصوات اليهود فى الانتخابات ، ليست هى ـ كما يتجه اليه اعتقاد بعض المراقبين الذين يقلون عن هؤلاء الساسة حمقا ـ التفسير الكامل للتأييد الساحق الذى ما برحت الولايات المتحدة تبذله للصهاينة • اذ لم تكن هذه السياسة انعكاسا لمجرد تقديرات خاصة لاعتبارات داخلية وانما كانت انعكاسا لشعور الرأى العام فى أمريكا باللامبالاة ومثاليته وتشويه معلوماته •

لقد ألفى الأمريكيون أنفسهم قادرين على التدخل فى

المصائب التى أنزلها النازيون فى أوربا باليهود ، ذلك لأن يهودا آخرين كانوا يمثلون نماذج بشرية مألوفة فىحياتهم اليومية ، أما العرب فليسوا منتشرين فى الحياة يذكرون الأمريكيين بنكبات عرب فلسطين • ان الغائبين دائما مخطئون •

ويتفق الصهاينة مع المدرسة المنافسة لهم أعنى مدرسة الفكر اليهودى المتحرر التى تنادى بادماج اليهود فى كل دولة فى عناصر تلك الدولة الاخرى • أجل يتفق الفريقان فى الرغبة فى علاج اليهود من ضعفهم كطائفة شاذة • لكن تختلف نظرة كل من المدرستين فى التطبيق :

وقوام المثل الأعلى للاندماجيين أن يصبح اليهودى فى هولندا أو انجلترا أو أمريكا مجرد مواطن هولندى أو انجليزى أو أمريكى ، يهودى الدين • ويستندون فى ذلك الى أنه ليس ثمة ما يبرر اخفاق المواطن اليهودى فى أى بلد مستنير فى أن يصبح مواطنا مندمجا راضيا فى هذا البلد ، لمجرد تصادف توجهه الى المعبد اليهودى يوم السبت عوضا عن الذهاب الى الكنيسة يوم الأحد •

ويرد الصهاينة على ذلك باجابتين :

الأولى — تشير الى أنه بفرض قدرة طريقة الاندماج على احداث النتيجة التى ينسبها لها المدافعون عنها ، فانها قابلة للتطبيق فقط فى تلك البلاد المستنيرة • وأمثال هؤلاء اليهود يكونون أقلية ضئيلة جدا من يهود العالم •

الثانية ـ تدعى أنه حتى فى ظـل احسن الظروف لن يتأتى حل المشكلة اليهودية بهذه الطريقة لأن كون المرء يهوديا شيء أبعد مدى من كونه يهودى الدين ٠

واليهودى الذى يسعى لتحويل نفسه الى هولندى أو انجليزى أو أمريكى ، يشـــوه ـ فى أعين الصـهاينة ـ شخصيته اليهودية ، دون أن تكون لديه أية نية فى اكتساب شـخصية الهولندى الكاملة أو أية جنسـية أخرى يقع اختياره عليها من بين جنسيات الأمم الأخرى ، فأحرى أن تنفذ عملية الاندماج ـ كما يدعى الصهاينة ـ على أساس قومى لا فردى ٠ فبدلا من أن يحاول الأفراد اليهود عبثا الاندماج بحيث يصـبحون أفرادا انجليز أو هولنديين ، يجب على الشعب اليهودى نفســه أن يتحول الى شـعب يماثل الشعب الانجليزى : وذلك بانشاء وطن قومى يغدو فيه اليهودى كالانجليزى فى انجلترا ســـيدا فى بيته الخاص ٠

٥ ـ الغاية من انشاء اسرائيل

تستند الشعوبية اليهودية على دعامتين :

الأولى : التشتت ٠

الثانية : الغيتو

ويمكن للباحث تشبيه الشعوبية اليهودية بقوقعـة يحرص حيوانها داخل المحارة على البقاء فيها وعدم مغادرتها

الا بالقدر اللازم لمصلحته ، فان غادرها تعرض لعـــوامل التطور التى اما أن تحيله الى كائن جديد أو تقضى عـــلى ذاتيته ، ان لم يتواءم مع البيئة الجديدة ٠

ويطالع الباحث حقيقة لاتمارى، مبناها أن الصهيونية قد نشأت فى غمار ايمان أوروبا الغربية بالليبرالية عمليا بما تضعه بين ثناياها من اندماج عناصر الســـكان على اختلافهم ٠ ويعنى هذا نهاية المعزل اليهودى « أى الغيتو » الذى عاش اليهود بين ظهرانية ٠ وفى هذا المعزل أمكن اليهودى كفالة ذاتيته وان لم يحل بينه وبين الاختـــلاط بالعالم الخارجى بالمقدار الذى يتفق ومصالحه المادية ٠ ثم جاء قيام الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى ودول أوروبا الشرقية ضربة قاضية على نظرية الغيتو ٠ فلقد أجبر اليهود على الاندماج بسكان البلاد والعمل معهم جنبا الى جنب فى جميع المهن ومنها الزراعة التى يأنف اليهودى من الاشتغال بها لأنها تربطه بالأرض فتقضى على ذاتيته المميزة القائمة على حرية الحركة كلما تطلب الحفاظ على ذاتيته التغيير والتحول ٠

فكان أن أصر مفكرو اليهود على ضرورة انشاء دولة اسرائيل ليتكون منها « غيتو » دولى يحفظ لليهود ذاتيتهم المميزة ويحول دون استيعاب الاممين « الجوييم » لهـــم على طول المدى ، وهو ما جاهدت الشعوبية اليهودية لتلافيه طيلة ٢٥٠٠ سنة ٠

وتصورت اليهودية أن انتباه الفيتو الدولى ــ متمثلا فى اسرائيل ــ يحقق لها نفس الأغراض التى يحققها العيش المحلى ، أى :

أولا : الحفاظ على الذاتية اليهودية بطريقة جديدة مدارها أن يكون لكل يهودى جنسيتان : اسرائيلية وترمز لتبعيته الروحية وهى موطنه الأصيل فى نهاية المطاف ، وجنسية البلد الذى يقيم فيه وترمز الى مصلحته المادية الموقوتة • وعندئذ يصدف اليهودى غير المقيم باسرائيل عن الاندماج بمواطنيه ويظل يتطلع الى اسرائيل روحانيا وتتصل بينه وبينها العلاقات بفضل السياحة والزيارات والمؤلفات • وتستفيد اسرائيل من وراء ذلك أموالا تتدفق عليها من اليهودية العالمية دون خطر عليها من اندماجها بالأميين • وهذا لعمرى تفسير رغبة أقطاب اليهود العارمة فى نقل يهود البلاد الاشتراكية الى اسرائيل لخشيتهم من فقدان ذاتيتهم المميزة على طول المدى •

ثانيا ــ الافادة من التشتت « أى من الأميين » بما لا يؤثر فى معدن الذاتية اليهودية وتوهم أقطاب اليهود أن تتولى اسرائيل القبض على ناصية التجارة والمال فى الشرق الاوسط ، فتحقق لهم السيطرة على العالم • وها هنا تصبح الأحلام التى راودت أحبار اليهود ابتداء من عزرا عن صيرورة أورشليم عاصمة امبراطورية يكون فيها الشعب المختار سيد العالم بأسره ، تصبح حقيقة واقعة •

وفى سبيل ذلك تتحالف الصهيونية مع الاستعمار العالمى ومع الامبريالية الخاضعة لنفوذ يهود نيويورك ومع الرجعية التى تتستر وراء الدين لكفالة استغلالها للشعوب وكان وعد بلفور ثمرة هذا التحالف الذى تكاتفت عـــلى تحقيقه عمليا قوى الاستعمار البريطانى والامبرياليـــــة الأمريكية والرجعية ٠

بيد أن التحدى الذى يمثله قيام اسرائيل فى الوطن العربى يبرز الى الوجود استجابة الشعوب العربية التى أصبحت اليوم تلمس خطر الشعوبية اليهودية على كيانهـا وقد أخذت رياح التغير تدوى فى جميع أرجاء العالم العربى مما يبشر بسلوكه طريق التقدم والارتقاء ٠

الفصل السادس

متناقضات مجتمع إسرائيل

التناقض سمة البشرية اللازمة • فلا يمكن أن يخلو فرد أو مجتمع من تناقض • وعلى كل فرد أو مجتمع علاج التناقض الكامن سواء فى محيطه الداخلى أم فى بيئتـه الخارجية والا أودى به •

بيد أنه مهما قيل عن تناقض مجتمع من المجتمعات البشرية سواء فى الماضى أو الحاضر ، فلا يمكن أن يبلغ فى حدة تناقضاته ما يبلغه اليوم مجتمع اسرائيل •

وأول ما يطالعنا فى هذا السبيل التناقض بين اليهود عامة وبقية شعوب العالم : تناقض أصبح يتجسـد فى مجتمع اسرائيل • فاليهود يطلقون على أنفسهم شعب الله المختار ، بينما ينعتون بقية الناس بأنهم أمميون أى أنهم أنواع من البشر أقل من اليهود منزلة وقدراً • ويكمن فى هذا التناقض تفسير كراهية العالم لليهود حتى فى المجتمعات التى اعتنقت الليبرالية أو الاشتراكية • فما انفك اليهودى فيهـا يهوديا ، ولا يزال هنـاك حاجـز سيكولوجى يفصل اليهود عن غيرهم على الرغم من تقرير المساواة رسميا . وهذا التناقض قد جـر الى المذابح والاضطهادات والنكبات التى حطت على اليهود ، فالعالم عاجز عن فهم اليهودية وما برح المفكرون يتساءلون عن كنه طبيعة اليهودية •

فهل يعنى انتساب امرىء الى اليهودية اعتناقه عقيدة دينية ؟

أو هل يعنى ذلك الانتساب مشاركته فى ثقافة جماعة تحتفظ بطابعها العنصرى ومزاجها القومى الخاص رغمـــا عن تشتتها ؟

وظاهر أن مجرد اعتناق اليهـــودية لا يفسر كنه الخصائص اليهودية . ذلك لأن العقيـــدتين المسيحية والاسلام تضمان الكثير من أصول الديانة اليهودية الاصيلة لكن الباحث لا يعثر على أمة مسلمة أو مسيحية تحوى تلك الخصائص التى يشتهر بها اليهود فى كل زمان ومكان • وهـذه الخصائص هى التى تدفع اليهود لكراهية اعتنـــاق غيرهم ديانتهم وعدم ترحيبهم بنشرها بين الشعوب مثلما تفعل المسيحية والاسلام وغيرهما من العقائد الدينية العالمية الطابع •

ولقد اكتسب اليهود تلك الخصائص بسبب بقائهـــم مئات السنين الطائفة الوحيدة التى تؤمن بوحدانية الدين • فكان أن اعتقدوا أن هذه الميزة امتياز خلعه الرب عليهـم وحدهم بموجب عقد يمنحهم الله مقابل ايمانهم به ســـيادة العالم فى الدنيا ونعيمه تعالى فى الآخرة • فأضلهم غرورهم عن رؤية روحانية العقيدة المسيحية وعموا عن مشـــاهدة ضياء الاسلام : وهما ديانتان عالميتان تسعيان لنشر أنعم الله وأفضاله بين شعوب الأرض على اختـلاف ألوانها وتناديان بالمساواة المطلقة بين الأجناس دون استثناء • فلا يزال اليهود أسرى القواعد التى وضعها لهم عـزرا

اليهودى البابلى وقصد من اقامتها احاطة اليهود بسياج يحفظ العقيدة اليهودية من التأثر بالعقائد الوثنية من ناحية ويحول بينهم وبين الذوبان فى المجتمعات الأجنبية وقد جعل منهم هذا على طول المدى ـ وبعد انبعاث المسيحية والاسلام ـ مجتمعا متحجرا من الوجهة الفكرية، وأقام بينهم وبين بقية العالم هوة فكرية سحيقة .

ولقد كان عدد يهود العالم فى سنة ١٩٣٩ حوالى ستة عشر مليونا ينتشرون فى جميع أنحاء أوروبا وجميع البلاد العربية ـ عدا السعودية ـ وتوجد منهم أعداد صغيرة فى معظم البلاد الآسيوية وشرق أفريقيا . ويبلغ عدد اليهود فى الوقت الحاضر ثلاثة عشر مليونا ينحصر معظمهم فى عدد محدود من البلاد وتغير توزيعهم تغيرا أساسيا . فبعد أن كانت أوروبا تضم قبل الحرب العالمية الثانية ٥٨ ٪ من يهود العالم ، أصبحت لا تضم الآن سوى ٣٠٪ منهم تقيم جمهرتهم الساحقة بالاتحاد السوفيتى ولا تأثير لهم البتة على الحركة الصهيونية العالمية ، الأمر الذى يقع الباحث الى اسقاطهم من دراسته لهذه الحركة . والمثل يقال ـ ولكن بدرجة أقل ـ بالنسبة ليهود أوروبا الغربية نظرا لعزوفهم عن فكرة الصهيونية العالمية ، ويبلغ عددهم أكثر قليلا من المليون .

والحق ، أصبحت فكرة الصهيونية العالمية تتجسد فى يهود الولايات المتحدة للأسباب التالية :

الأول ـ عددهم الضخم وتركزهم بالمدن الكبرى حيث يهيمنون على وسائل الاعلام بأنواعها مما يتيح لهم الضغط المعنوى والمادى على معارضيهم وتسيير السياسة الأمريكية ـ وبالأحرى سياسة العالم الغربى ـ وفقا لمشيئة الصهيونية

الثانى – الولايات المتحدة أقوى أمم العالم فى الوقت الحاضر ٠

وها هنا يطالعنا واحد من المتناقضات الاساسية فى الحركة الصهيونية ٠ فانه على الرغم من تحمل أمريكا للطائفة اليهودية الذين يعزفون تماما عن الهجرة الى اسرائيل ، فانهم دائما على استعداد للتبرع لاسرائيل بسخاء والاستماتة فى مناصرتها فى المحافل الدولية ، لكن لا تهفو نفوسهم قط للهجرة الى أرض الميعاد والحياة فيها ومقاسمة أهلها مصيرهم المحتوم ٠

ومن ثمة على الرغم من اعتبار الصهيونية العالمية اسرائيل مركز اليهودية العالمية ، لا يقيم بها سوى مليونين من اليهود ، أى أكثر قليلا من ١٥٪ من يهود العالم ٠

ورغما عن صيحات أحبار اليهود وعلى رأسهم بن جوريون بدعوة يهود العالم للاقامة فى اسرائيل ــ ففى زيادة عدد سكانها درع لها كما يزعمون ــ يعزف يهود البلاد الغربية عن التوجه الى اسرائيل مؤثرين التشتت « أى Diaspora » « بالاصطلاح اليهودى » بل

مفضلين التعرض لعملية الاندماج بغيرهم من الشـعوب الأخرى أو ما يطلق عليه بالاصطلاح اليهودى «الأميين» ـ الجوييم » ·

تبلى أن الصهيونيين العالميين لم يقبلوا الا على مضض فكرة المركزية التى تدعيها اسرائيل لنفسها تجاه اليهودية العالمية · ولا تزال حتى اليوم منظمات صهيونية ترفض هذه الفكرة ولا تسلم بها اطلاقا · ففى سنة ١٩٦٣ ، دعا ناحوم جولدمان الى ضرورة اشعار الطوائف اليهـودية المبعثرة فى أنحاء العالم (ويطلق عليها المنفى) بأهمية الدور « التمركزى » الذى تمثله اسرائيل بالنسبة ليهـود العالم . واذ كان يهود أمريكا أشد معارضى الفكرة ، يرى جولدمان أن الحركة الصهيونية الامريكية لم توفق فى تأدية رسالتها ويلقى قسطا من اللوم على عاتق حكام اسرائيـل وعلى شبابها · كما يلوم بن جوريون يهود الولايات المتحدة لاكتفائهم بالعون الأدبى والمساعدات المادية من غير المساهمة الفعلية فى تزويد اسرائيل بمـا تفتقر اليه من خبرات · واشتد النقاش بين الرأيين فى المؤتمرات الصهيونيـة حول هذا الموضـوع حتى قبل ان يهـود أمريكا يعتبرون الصهيونية « رغبة أحد اليهود فى ارسال يهودى آخر الى فلسطين بأموال يهودى ثالث » · والرأى السائد بين يهود الولايات المتحدة والغالبية العظمى من أفراد الطبقـات البورجوازية أن تدبير هجرة كثيفة من هؤلاء اليهـود الى اسرائيل سوف يحدث اضطرابا عميقا فى أوضـاع

هؤلاء اليهود وفى أساليب تفكيرهم ، فضلا عن انتفاء قدرتهم على تحمل قسوة الحياة فى ظل أوضاع اسرائيل الحالية وبخاصة وان وهم العاطفة الدينية هو كل ما يربطهم باسرائيل فى الوقت الحاضر ٠

وازاء اشتداد هجمات بن جوريون على الصهيونية الامريكية ، وعده بعض أعضائها بتدبير هجرة من اليهود الأمريكيين الى اسرائيل على أن يسبق هذا مرحلة اعداد خاص تقوم على انشاء شبكة من المدارس المتخصصة تدرس فيها التربية الاسرائيلية الى جانب اللغة العبرية ٠ لكن اليهودية الأمريكية قد طعنت آمال أقطاب اسرائيل فى الصميم وقتما أبانت نتيجة استفتاء بين يهود أمريكا حول موضوع الهجرة لاسرائيل أن قلة ضئيلة للغاية ترحب بالهجرة الى اسرائيل ٠ وانكى من ذلك ماتظهره الاحصاءات عن رحيل اليهود ذوى الأصل الأمريكى أو الأوروبى الغربى عن اسرائيل وايثارهم العودة الى بلادهم الأصلية ٠

واذ تنهار آمال الشعوبية اليهودية ــ ممثلة فى اسرائيل ــ فى هجرة يهود أمريكا وأوربا الغربية ــ الى اسرائيل ويتضح لها عدم جدوى التلويح بالعقيدة الدينية فى اجتذابهم للاقامة فى أرض الميعاد المزعومة ، تتعلق آمال اليهودية الشعوبية فى الوقت الحاضر فى نزوح ثلاثة ملايين يهودى ــ تقريبا ــ يقيمون فى بلاد أوروبا الشرقية ٠ وتحقق هذه الهجرة المرتجاة أملين :

الأول ـ زيادة فى عدد سكان اسرائيل بحيث يجاوز عدد سكانها الخمسة ملايين نسمة •

الرابع ـ الحيلولة دون فقدان يهود اوروبا الشرقية ـ ولا سيما الروس ـ الخصائص اليهودية المميزة • فالواقع بينما تتألف الطبقة الحاكمة من يهود أوروبا الشرقية •

الثالث ـ الافادة من الخبرات التى اكتسبها يهـود الاتحاد السوفيتى من العمل فى المزارع المشـــتركة وفى المصانع •

الرابع ـ الحيلولة دون فقدان يهود أوروبا الشرقية ـ ولا سيما الروس ـ الخصائص اليهودية المميزة • فالواقع ان الذاتية اليهودية قد أخذت تتآكل فى البلاد الاشتراكية بفعل ادماج اليهود فى اقتصـــاد البـلاد القومى الخاضـع لتخطيط الدولة . وما يعنيه هذا من القضاء على انعزالية اليهود وتفردهم فى مناطق خاصة يحتفظون فيها بذاتيتهم المميزة •

لكن تأبى الحكومة الســوفيتية الســماح ليهودييها بالهجرة • اذ تعتبرهم رعاياها ولا تقيم وزنا لعقيدتهـــم الدينية أو عنصرهم . وهذا ما يثير ثائرة الصـهيونية العـــالمية .

فنجدها تشهر سـلاحها التقليدى المفلول ، أى :

معاداة السامية . والاتحاد السوفيتى أبعد دول العالم بحكم مبادئه عن التحزب لدين أو مناهضة عنصر . على أن أقطاب اسرائيل يرون أن هجرة يهود أوروبا الشرقية اليها سوف يساعد هذه الدولة فى تحسين مستوياتها السياسية والعسكرية والاقتصادية ، بل يرتهن نجاتها من الأخطار المحدقة بها ـ كما يقولون ـ بقرار تصدره الحكومة السوفيتية تطلق فيه الهجرة الى اسرائيل لليهود السوفيت .

وثمة سؤال من الأهمية بمكان عظيم يتوقف على الاجابة عليه مستقبل يهود أمريكا ، وبالاحرى مستقبل الصهيونية الدولية . فهل يخشى ظهور حركة عداء للسامية فى الولايات المتحدة مثل التى ظهرت فى ألمانيا فى عهد هتلر ؟ ان العداء للسامية كامن فى الولايات المتحدة لم يظهر للوجود بعد لكن احتمالات ظهوره قائمة ، وهذا هو تفسير حرص أقطاب اليهودية الامريكية على عدم الترحيب بمهاجرين يهود الى تلك البلاد خشية اندلاع حركة مناهضة السامية فيها ، بالاضافة الى ما يبدو للباحث من اتجاه اليهود الأمريكيين صوب الاندماج السريع بالمجتمع الأمريكى . وهنا يبرز أمامنا تناقض خطير من التناقضات التى تزخر بها الشعوبية اليهودية . فانه وان ملأ يهود أمريكا العالم صياحا وبكاء على اسرائيل مندفعين لمؤازرتها ومساندتها ، لكن المشاهد أن الشباب اليهودى فى أمريكا

يبتعد يوما بعد آخر عن تعالم عقيدته الدينية وينأى عن خصـــائصه اليهودية تحت ضـغط البيئة التى يعيش فى محيطها ، وبفعل تأثير الحياة الامريكية التى تفرض التوحد على معتنقى أســـاليبها • وان من ظواهر العصر الحديث ضعف الوازع الدينى بين الشباب • لكن نجد هذه الظاهرة على أشدها فى أوساط الشباب اليهودى الأمريكى : ولا سيما أن هذا الشباب يقبل على التزوج من مســـيحيين ومســـيحيات مما يؤدى الى ضعف الروح الدينية ويقود ــ بالذات ــ الى زوال الخصائص اليهودية المميزة • وتقرر الاحصاءات أن ٧٠ ٪ من أبناء الزيجات المختلطة يهجرون اليهودية تماما • وقدر فى واشنجطن أن من بين زيجـات اليهود ٣٧٪ زيجات مختلطة •

وليس أدل على ظاهرة اندماج اليهود الامريكيين فى المجتمع الأمريكى من ابتعادهم عن تعاليم التلمود ابتعـــادا تاما بالنسبة للحفلات الجنائزية وطقوس الدفن ، والتزامهم ــ فى هذا الشأن ــ العادات الأمريكية المتبعة • وتعتبـر طقوس الدفن اليهودية احدى دعامات الحفاظ على الذاتية اليهودية المميزة • ولعل رعونة اليهود الأمريكيين فى تأييد اسرائيل رد فعل لجنوحهم صوب الاندماج بالحياة الأمريكية وتكفير عن تحللهم المشاهد من الذاتية اليهودية المميزة •

والحق ، أنه ترتبعلى اعتناق الليبرالية والاشتراكية،

التخفيف من حدة كراهية الســامية وتيسير اندماج اليهود في البيئات التي يعيشون في نطاقها • ويعتبر الصهاينة وأحبار الدين اليهــودى فكرة الاندماج من أبشع الاخطار التى تهدد الشعوبية اليهودية • ولقد عبر ناحوم جولدمان عن هذا الرأىفى احدى اجتماعات منظمة الصهيونية العالمية يوم ١٦ مارس ســنة ١٩٦٣ بقوله «الاندماج هو الخطر الكبير الذى يتهــددنا منذ اللحظة التى خرجنا فيهــا من الجيتو ومن المعتقلات » .

ويعنى هذا القول أسف الصهيونية العالميةعلى انقضاء عهــد الجيتو ، ذلك لانه قد أنتج على مدى القرون يهودا يعيشون عيشة يهودية مميزة تتباين ومعيشة الاقوام التى يعيشون بين ظهرانيهــا ، فكانوا يؤلفون مجتمعــا داخل مجتمع • فكانت حياتهم هذه حائلا بينهم وبين الاندماج فى غيرهم والزوال التام •

ولكن ، هل يوجد شيء اسمه الشعب اليهودى تعتبر اسرائيل جزءا منه ؟

عرف اليهود النفى والتشريد منذ القرن الثامن قبل الميلاد • ولم توفق جميع المحاولات التى بذلت خلال القرن السادس قبل الميلاد وما بعده لاستعادة مملــكة يهودا ومن بعدها مملكة اسرائيل فى اجتذاب اليهــود للاقامة بأرض الميعاد المزعومة • ومن ثمة ، عاش اليهود قرابة ٢٥٠٠سنة

من الاضطراب والهجرات والاختلاط العنصرى والتحول عن الديانة اليهودية ، وتمت آلاف الزيجات المختلطة • وبالتالى ، ألمت باليهودية تطورات جوهرية واجتماعية وسيكولوجية وثقافية استطالت وامتدت على طول القرون والأحقاب حتى ليحق للباحث أن يتساءل عن المعيار الذى تقاس على أساسه أوضاع اليهود اليوم وعما يجمع بينهم:

هل يتبلور المعيار فى العنصر أم الدين أم الامة ؟

وهل بين اليهود وحدة وهل يكونون شعبا ؟

لقد تردى اليهود في الانطواء على أنفسهم بفضل تعاليم عزرا — كما قررنا من قبل — فلما أن اندفعت الشعوب التى يعيشون بين ظهرانيها لاضطهادهم لاصرارهم على تكوين مجتمع خاص بهم ، اشتدت حدة تقوقعهم وقاد ذلك الى نشوء تقاليد دينية خاصة داخل الطوائف اليهودية وبروز معالم ثقافية متميزة • ولقد اسفرت دراسات علم الاجناس عن حقيقة لاتمارى مبناها عدم وجود عنصر يهودى متميز • اذ يذكر التاريخ وقائع اقبال بعض عناصر أوروبية وهندية ومنغولية على اعتناق الدين اليهودى ، وظاهر من ذلك انتفاء الصلة — اطلاقا — بين يهود هذه المناطق ويهود فلسطين • ويكون الأولون أكثرية يهود العالم العظمى • أما ما يظهر على الجماعات اليهودية من ملامح ظاهرية مشتركة بين أفرادها ، فمردها طول اقامتهم بين ظهرانى جماعات مغلقة يتزاوج أفرادها فيما بينهم ويتشاركون فى

أنماط للحيـــاة متشابهة ، واعتناقهم منحى تفكير واحــد وممارستهم تقاليد متماثلة •

وبالاحرى ، ليست النفسية اليهـودية المميزة مردها العنصر أو الأصل أو العقيدة الدينية ،بل ترجع ــ أساسا ــ الى الجيتو وحياة الجيتو (أى الى العزالية اليهود) •

ان نظرية الشعب اليهودى المتميز قد أصبحت خرافة بفضل شيوع الاشتراكية والنزعة الليبرالية بما تفرضانه من اندماج العنـــاصر وتوحدها فى سبيل غايات المجتمع المشتركة •

ويقبـــل الكثيرون من اليهـود الامريكيين على زيارة اسرائيل بدافع من الدعاية الصهيونية • وهنـــاك تصدمهم تناقضات مجتمع اسرائيـــل • فالاسرائيليون الذين ولدوا ونشئوا بها ؛ أقل تمسكا بتعاليم الدين اليهودى مما كان يتوقعه هؤلاء الزائرون • ولقد اطلعت على تصريح أدلى به طالب يهودى أمريكى قرر فيه أنه قبل زيارته اسرائيل كان يعتقد أن اليهود جميعا شعب واحد ، وهذا ما لم يجده •

أعنى أن الدين أو القومية لا تربط ســكان اسرائيل بعضهم ببعض ، لكن يربط بينهم المصير المشترك وسياسة الدول الامبريالية التى تتوهم أن وجود اسرائيل حفاظ على

مصالحها فى الشرق الاوسط ، كما تسند الصهيونية العالمية الوجود الاسرائيلى باعتباره تجسد الحفاظ على الذاتية اليهودية الذى تهدده عملية الاندماج التى تسير حثيثا فى المجتمعات الاخرى ·

ولعل أبشع تناقضات مجتمع اسرائيل حقيقة لا معقب لها مدارها تباين مجتمع اسرائيل وتنافره الى أبعد الحدود مع المنحى التفكيرى لمجتمع الشرق الاوسط · اذ تبرز اسرائيل فى بحر خضم من الدول العربية التى يجمع بينها الدين واللغة والتاريخ المشترك والامانى والاهداف والآلام· فالدول العربية وحدة حضارية تضم مائة مليون نسمة وتنتسب الى الحضارة الاسلامية التى تضم بين ظهرانيها أكثر من ستمائة مليون نسمة · فاسرائيل كائن شاذ لا يمكن أن يستقيم وجوده فى قلب هذا المحيط الحضارى الاسلامى ، مع ما تمثله من مفاهيم سياسية واقتصادية وثقافية تناهض على طول الخط القيم العربية والاسلامية وتعاديها · وبكلمة جامعة ، تمثل اسرائيل تناقضا خطيرا فى المجتمعات الآسيوية والافريقية لا مناص من القضاء عليه فى نهاية المطاف ·

فهرس

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٠/٢٢٢١

ملتزم التوزيع

في الجمهورية العربية المتحدة وجميع أنحاء العالم

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

مكتبات الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

١ — فرع شريف	٣٠ شارع شريف	تليفون ٤٠٠١٢ القاهرة
٢ — فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٢ القاهرة
٣ — فرع ميدان عرابي	٥ ميدان عرابي	٤٩٣٨٣ القاهرة
٤ — فرع المبتديان	١٣ شارع محمد عز العرب	٢١١٨٧ القاهرة
٥ — فرع الجمهورية	٢٢ شارع الجمهورية	٩١٠٧٤٢ القاهرة
٦ — فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤١٢٣ القاهرة
٧ — فرع الحسين	ميدان الحسين	القاهرة
٨ — فرع الجيزة	١ ميدان الجيزة	٨٩٨٣١١ القاهرة
٩ — فرع أسوان	السوق السياحي	٢٩٣٠ أسوان
١٠ — فرع الإسكندرية	٤٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٥ الإسكندرية
١١ — فرع طنطا	ميدان الساعة	٢٢٩٤ طنطا
١٢ — فرع المنصورة	ميدان المحطة	المنصورة
١٣ — فرع أسيوط	شارع الجمهورية	أسيوط

مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

١ — مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدي العربي رقم ١١ مكرر	الجزائر
٢ — مركز توزيع لبنان	شارع حبيش	بيروت
٣ — مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ — عبد الرحمن الكيالي	شارع ٢٩ آيار — دمشق	سوريا
٥ — الشركة العربية للتوزيع	ص ب رقم ٤٢٢٨ بيروت	لبنان
٦ — قاسم الرجب	مكتبة المثنى — بغداد	العراق
٧ — رجا العيسى	وكالة التوزيع — عمان	الأردن
٨ — عبد الكريم العيسى	دار للتوزيع ص ب ١٥٧٦	الكويت
٩ — وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ — مكتب الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص — ليبيا	بنغازي
١١ — محمد بشير الفرجاني	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ — الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ — وكالة الأهرام	شارع الرشيد	عمان
١٤ — المكتبة الوطنية	المنامة — الخليج العربي	البحرين
١٥ — مكتبة الدوحة	ص ب ٤٢ و ٦٤	الدوحة
١٦ — عبد الله حسين الرستماني	المكتبة الأهلية ص ب ٢٩١	دبي/عمان
١٧ — المكتبة الحديثة	ص ب ٢٧	مسقط
١٨ — أحمد سعيد عبدد	المكتبة الوطنية ص ب ٢٥	المكلا
١٩ — مكتبة دار القلم	شارع عبد المغني ميدان التحرير	صنعاء
٢٠ — علي ابراهيم شبير	ص ب ٨٢	أسمرة
٢١ — عبد الله قاسم الحرازي	ص ب ١٧١٤	أديس أبابا
٢٢ — مكتبة ستر	ص ب ٩٣٦	مقديشيو
٢٣ — عبد الله غانم محمد	ص ب ٨٤٥	ممباسا
٢٤ — مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ — المكتب التجاري الشرقي	٤٠ ش كمبحار ص ب ٥٠٠٥	سنغافورة
٢٦ — مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ — مكتبة الفجر		وادي مدني
٢٨ — زكي جرجس طليوس	ص ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ — ابراهيم عبد القيوم	مكتبة القوم ص ب ١٨٠	بور سودان
٣٠ — عوض الله محمود دوره	مكتبة دوره ص ب ٩٤	عطبرة
٣١ — عيسى عبد الله	المكتبة الوطنية ص ب ٢٤٥	وادي مدني
٣٢ — مصطفى صالح	ص ب ٤٤	كوستي

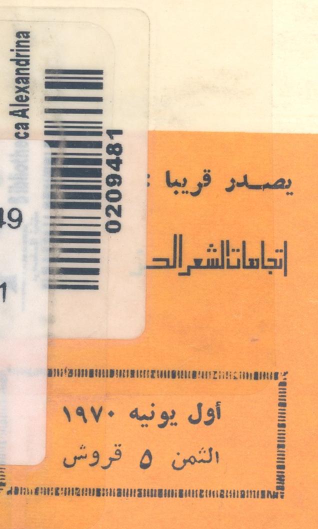
أسعار البيع للجمهور في الدول العربية

سوريا ٥٠ قرش سوري — لبنان ٥٠ قرش لبناني — الأردن ٥٠ فلس — العراق ٥٠ فلس — الكويت ٧٠ فلس — السودان ٥٠ مليم — ليبيا ٥٠ مليم — قطر ٧٥ درهم — البحرين ٧٥ فلس — عدن ١٠٠ سنت — أديس أبابا ٥٠ سنت — أسمرة ٥٠ سنت — الجزائر ٨٠ سنتيم

- سفير مصر فى اندونيسيا .
- أمضى فى السلك الدبلوماسي المصرى أكثر من ثلاثين عاما .
- من أهم مؤلفاته : مختصردراسة التاريخ ((ترجمة عن توينبى)) فى أربعة أجزاء – حكمة الصين ((دراسةلمعالم الفكر الصينى منذ أقدم العصور حتى الآن)) فى جزءين – السياسات الاقتصادية الدولية – دراسة تحليلية للدستور السوفيتى – منهاج توينبى التاريخى – حضارة الاسلام فى دراسة توينبى التاريخى – حضارة الاسلام فى دراسة توينبى للتاريخ – التنميةالاقتصادية – دراسات في اقتصاديات القارة الافريقية .



فؤاد محمد شبل



المكتبة الثقافية

(جامعة حرة)

- خلاصة الفكر القومى والإنسانى
- تجعل المعرفة متعة تعمق الشعور بالحياة ، وسلاحًا يساعد على الإنتصار فى معركة الحياة

يشرف على السلسلة

الدكتور شكرى محمد عياد